بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ الإسلامي

The Women Waqfs in Ayyubid Period
658-570 A.H / 1260-1174A.D

وقف المرأة في دمشق في العصر الأيوبي
٥٧٠ -٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م

إعداد الطالب:

عوده رافع عوده الشرعة

الرقم الجامعي ٠٥٢٠٣٠٣٠٠١

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

فهرس الرسالة

الموضوع

المقدمة
الباب الأول: وقف المرأة في الفقه الإسلامي وتطوره التاريخي
الباب الثاني: التطور الجديد في الوقف في العصر الأيوبي
الباب الثالث: النساء الواقفات في دمشق في العصر الأيوبي
الباب الرابع: الآثار التعليمية لوقف المرأة
الباب الخامس: معطيات حضارية عن دمشق من وقفيات النساء
الخاتمة
الملاحق
المصادر والمراجع
الملخص باللغة الإنجليزية

المقدمة:

يعتبر الوقف نظاماً ساهم بفعالية في نماء المجتمع الإسلامي وازدهاره، وقد نتج عنه مؤسسات متكاملة في كافة الميادين الحيوية للمجتمع من تعليمية وصحية وتعبدية واجتماعية، عملت على ابتكار الحلول لكل ما يستجد من مشكلات وما يطرأ من أزمات.

وقد مثل الوقف، بعد أن اتفق على جوازه جمهور الفقهاء واستخلصوا له الشروط التي تكفل له النجاح، الحامل للحضارة الإسلامية وذلك باهتمامه بالعلم والمعرفة ودوره في العمران. فقد اهتم الوقف بإنشاء المدارس والمكتبات والبيمارستانات (التي كانت بدورها مراكز لتعليم الطب)، كما أنشأ في المدن العديد من المنشآت (الخانات والأسواق والحمامات والتكايا، إلخ) التي أصبحت علامة مميزة للمدن الإسلامية.

ومع تعاقب الفترات التاريخية المختلفة للحكم الإسلامي عمل الواقفون على توثيق نصوص أوقافهم في كتب الوقف أو الوقفيات لإعطاء الوقف صبغة شرعية. وهذه الحجج الوقفية أصبحت تصلنا بكثرة منذ العصر الأيوبي ٥٧٠-٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م، مما أصبح يساعدنا أكثر على دراسة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر نظراً للمعطيات الكثيرة التي تتضمنها تلك الحجج. ويمكن القول أنه في هذا العصر بلغ الوقف ذروة جديدة مقارنة بالعصور الإسلامية السابقة وشمل جميع مناحي الحياة الدينية والتعليمية والاجتماعية.

وفي العصر الأيوبي بالتحديد توسع دور المرأة وازدادت مشاركتها وتفاعلها مع المجتمع حتى وصل الحد إلى أن تتصدق بعض النسوة بشعورهن ليصنع منه مشدات وقيود لخيل المجاهدين في سبيل الله تعالى. ومع أن الإسلام لم يعط أفضلية للرجل في مجال الوقف إلا أنه من الملاحظ أن إسهام المرأة في الوقف كان محدوداً خلال القرون الهجرية الخمس الأولى، ولم يبرز بوضوح إلا في العصر العباسي الثاني، وهو ما توضحه بعض الدراسات الحديثة.

وبشكل عام يعتبر وقف المرأة من المواضيع التي لم تتطرق لها الدراسات الحديثة إلا قليلاً، وعليه تأتي هذه الدراسة المسماة بـ "وقف المرأة في دمشق في العصر الأيوبي ٥٧٠-٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م" لرصد كل الأوقاف التي أوقفتها الخاتونات والصالحات ونساء الطبقة العامة ما بين وقف خيري للمجتمع أو وقف ذري يكون محصوراً على ذرية الواقفة.

إشكالية الدراسة ومنهجية البحث:

يلاحظ على الدراسات التاريخية في العقود الأخيرة أنها أخذت تركز على دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، لأنه يساعد بالدرجة الأولى على تصحيح فهمنا للتاريخ السياسي وبواعثه العميقة ويجعله أكثر عقلانية.

ويعتبر موضوع الوقف أحد مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية والتي لم تنل نصيبها من الدراسة المتأنية وأبعادها على المجتمع.

وتعود علاقتي بموضوع الوقف منذ دراستي في مرحلة البكالوريوس في جامعة آل البيت، حيث كنا ندرس مادة "الأوقاف والأحباس" وهي مادة توضح المفاهيم والمفردات الأساسية لهذا الموضوع.

أما فكرة هذه الرسالة فقد جاءت من مقالة نشرت في تشرين الأول في ٢٠٠٦ للدكتور محمد الأرناؤوط بعنوان : "هل الوقف حكر على الرجال؟" وبينت أن المرأة أيضاً كان لها دور في الوقف في مختلف العصور الإسلامية، وهذا ما بينته بعض الأوراق البحثية التي قدمت للمؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الأردنية خلال أيلول ٢٠٠٦م التي اطلعت عليها لاحقاً.

ومن هذا المنطلق اخترت وقف المرأة في دمشق في العصر الأيوبي لأن دمشق مركز حضاري كبير ولأن العصر الأيوبي بالذات عصر ازدهرت فيه الأوقاف، ولذلك تقوم هذه الدراسة على فرضية أن المرأة ليست بمعزل عن مجتمعها فهي عنصر فعال فيه، وهذا ما ينطبق على الوقف الذي تميز به المجتمع الإسلامي في العصر الأيوبي. وبمعنى آخر أن هذه الدراسة تسعى إلى أن تبين مدى مساهمة المرأة في الوقف إلى جانب الرجل، في المكان (دمشق) الذي قال عنه الرحالة ابن جبير: "أن الأوقاف تستغرق جميع ما فيه"، وفي زمان هو العصر الأيوبي.

منهج الدراسة:

تنطلق الدراسة من أن كتب الأوقاف أو الوقفيات تشكل مصدراً مهماً لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وذلك نظراً إلى الحيز الذي شغله الوقف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ولذلك فإن الدراسة حاولت أن تصل إلى وقفيات جديدة غير معروفة حتى تثبت قيمتها في دراسة التاريخ الاجتماعي، وبالتحديد فيما تضيفه من معطيات جديدة وغير معروفة عن الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت. وقد تمكن الباحث من الوصول إلى بعض وقفيات النساء، التي لم تكن معروفة حتى الآن، والتي أفادت كثيراً هذه الدراسة، وننشرها هنا في الملحق لأول مرة.

ولأجل ذلك تعتمد الدراسة المنهج التاريخي فيما يتعلق تطور الوقف في الفقه والتاريخ خلال القرون الهجرية الخمسة الأولى وصولاً إلى العصر الأيوبي، كما وتستخدم المنهج التحليلي في تحليل الوقفيات التي أمكن العثور عليها لاستخراج ما فيها من معطيات عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

لقد سعت الدراسة إلى إعطاء تفاصيل عن وقف المرأة من حيث حجم الوقف وأصوله، وهو ما لم يتوفر دائماً، كما سعت إلى إعطاء نبذة عن حياة الواقفات وهو ما لم توفره المصادر إلا عند بعضهن، فعمدنا إلى التعريف بزوج أو والد الواقفة إن لم تتوفر معلومات كافية، وهذا ما يؤكد الطابع الذكوري لمصادرنا التاريخية.

ولم تخرج الدراسة عن الإطارين الزمني والمكاني دمشق ٥٧٠-٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م، وقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر التي أغنت البحث من كتب تاريخ عام وتراجم وخطط ورحلات.

وقد قسمت الدراسة إلى خمسة أبواب: الباب الأول؛ وقف المرأة في الفقه الإسلامي وتطوره التاريخي، وقد بينت في هذا الفصل أن الإسلام أعطى المرأة كامل حريتها في التصرف بالأموال التي تمتلكها دون حق تدخل الزوج أو ولي الأمر إن كانت راشدة وبالتالي فلها الحق في أن توقف ما تشاء وعلى من تشاء، ولا تمنع من الوقف إلا إذا كانت أمة (غير حرة). وقد عرضت لنماذج أوقاف المرأة عبر القرون الخمس الأولى التي سبقت العصر الأيوبي، في أماكن متعددة مثل العراق ومصر واليمن والمغرب، فتبين من خلالها مساهمة فعالة للمرأة في مختلف مناطق العالم الإسلامي.

الباب الثاني التطور الجديد في الوقف في العصر الأيوبي، وقد حاولت في هذا الباب أن أبين التطورات التي طرأت على الوقف حيث استجدت أوقاف لم تكن معروفة سابقا، وبينت ذلك

التطور ودوافعه من خلال الجانب التعليمي والاجتماعي، فكان العصر الأيوبي بحق عصراً مميزاً في مجال الأوقاف،

الباب الثالث؛ النساء الواقفات في دمشق في العصر الأيوبي وأوقافهن، واستطلعنا حصر ما يقرب من إحدى وعشرين (٢١) واقفة وكانت غالبية الأوقاف مدارس وخوانق ومساجد، فالعصر الأيوبي الذي اتسم بازدهار الحركة التعليمية لمواجهة التشيع من جهة والفرنج من جهة أخرى يفرض نفسه على طبيعة وقف المرأة.

الباب الرابع؛ الآثار التعليمية لوقف المرأة، وتطرقت في هذا الباب إلى أثر هذه الأوقاف على الناحية التعليمية في دمشق حيث أصبحت مركزاً تعليمياً يرفد قطاعات الدولة بالمتعلمين، ونالت بعض المدارس شهرة واسعة، وهذا كله ترك آثاراً إيجابية على المجتمع بكافة فئاته.

الباب الخامس؛ معطيات حضارية من وقفيات النساء في دمشق وضواحيها، وذلك اعتماداً على وقفيات لنساء ذلك العصر، مثل المستوى المعيشي للمدرسين والطلاب ومقدار رواتبهم، كما تعرضت للباس والأطعمة والأوزان والمكاييل والفئات التي استفادت من الوقف بشكل مباشر وغيره.

وتبين أن الوقفيات هي صورة حية عن ذلك العصر ومصدر معلومات جديد فهي رافد آخر لمعلوماتنا عن ذلك العصر مع المصادر الأولية.

أما الخاتمة فقد تضمنت النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وأوردت ملحقاً بوقفيات نساء من ذلك العصر وأوردت أيضاً قائمة بالمصادر والمراجع التي أفدت منها في إعداد الدراسة.

الدراسات السابقة:

حاولت قدر الإمكان حصر الدراسات التي تناولت موضوع وقف المرأة في العصر الأيوبي، ولكن لم أعثر على أي دراسة متخصصة عن وقف المرأة في هذا العصر، ومعظم ما وجدته هي إصدارات عمومية لا تتناول فترة زمنية محددة أو منطقة جغرافية معينة. وقد جاءت على النحو التالي:

١- إيمان محمد الحميدان، المرأة والوقف

وقد صدر هذا الكتاب عن الأمانة العامة للأوقاف الكويتية، وهو يوضح العلاقة التفاعلية والتبادلية بين المرأة والوقف فهي لم تقتصر على إسهام المرأة في الوقف بل على اهتمام الوقف بالمرأة أيضاً.

وقد أبرزت المؤلفة مشاركة المرأة المسلمة منذ صدر الإسلام وبالتحديد منذ زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابيات في الوقف. من حيث المبادرة إلى إنشاء الأوقاف أو من حيث المشاركة في إدارة الوقف، حتى أنها تتوصل لنسبة تقريبية عن مشاركة المرأة في الوقف وهي ٢٥% من الأوقاف الكبيرة في بعض الحالات بينما وصلت نسبة مشاركة المرأة في إدارة الوقف إلى ١٤% في الحالات المرصودة أحياناً.

كما حرصت المؤلفة على توضيح مشاركة المرأة في مجالات الوقف المختلفة على مر التاريخ وهي (عمارة المساجد، والمدارس والمكتبات التي كانت دائماً مرتبطة بالمدارس، والخدمات الصحية والخدمات الاجتماعية).

وتبرز المؤلفة تجربة المرأة الكويتية في العصر الحديث مع الوقف وتعطي نماذج عديدة لهذه المشاركة، أما بالنسبة عن وقف المرأة في العصر الأيوبي فقد أشارت المؤلفة إلى بعضها مثل المدرسة الشامية البرانية والجوانية ولم تدرسها بشكل مفصل.

٢- حسن شميساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي

وهذا الكتاب يختص فقط بالمدارس ويحصرها ضمن العصر الأيوبي. ويقسمها حسب المذاهب (شافعية وحنفية ومالكية وحنبلية) ويرصد لخمسين مدرسة في دمشق ويتناول في دراسته لمؤسسي المدارس وأما أوقف عليها وأبرز مدرسيها كذلك.

ومن ضمن هذه المدارس يشير لما أوقفته المرأة الأيوبية ولكنه لم يميزها عن غيرها أو يتوسع في دراستها.

٣- فاروق بليسي، وقف المرأة في إسطنبول

وهو بحث منشور في مجلة "أوقاف" الكويتية في العدد العاشر لعام ٢٠٠٦م باللغة الفرنسية، يتناول وقف المرأة في إسطنبول "عاصمة الدولة العثمانية" ويبين في البداية وجهة النظر الفقهية لوقف المرأة، الذي برز بشكل واضح عن السلطانات والأميرات والمحظيات، كما أنه يبين مصدر هذه الأموال الموقوفة التي جاءت عن طريق العطاء السلطاني، أو عن طريق الهدايا أو الوراثة، ويعرض لنماذج من هذه الأوقاف.

ويلاحظ أن هذه الدراسات إما أشارت عرضاً لوقف المرأة ضمن إشارتها للوقف في العصر الأيوبي، ولم تبين أثر هذه الأوقاف على الحياة التعليمية والاجتماعية والدينية، فلم تفرد لهذا الموضوع دراسة مستقلة، كما يلاحظ أنها دراسات مختصة بالتاريخ الإسلامي الحديث. وستكون هذه الدراسة مختصة بالعصر الأيوبي الذي يصنف ضمن التاريخ الإسلامي الوسيط.

تحليل المصادر والمراجع:

اعتمد الباحث في إعداد الدراسة على العديد من المصادر الأساسية التي شملت معلومات غنية غطت جوانب الدراسة ونورد فيما يلي أبرزها:

١- **الحجج الوقفية**، المحفوظة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء وهي أربعة وقفيات، وتعد هذه الحجج الوقفية من المصادر المهمة التي اعتمدت الدراسة عليها، وقد تميزت بمصداقيتها ودقتها لأنه لم يرد بها تدوين التاريخ والكتابة التاريخية، بل جاءت لحفظ أصول الوقف وحقوق المنتفعين في المجتمع، وقد أفادتنا بالتعرف على الكثير من الجوانب الحضارية التي تميزت بها مدينة دمشق في العصر الأيوبي مثل الألبسة والأطعمة والمستوى المعيشي للطلاب والعلماء والمعلومات الطبوغرافية وغيرها.

وقد رمزنا لهذه الحجج بحرفي .T.D وتعني طابو دفتري ثم اتبعناها برقم الدفتر ورقم الصفحة. مثلاً وقفية زهرة خاتون .T.D. Istanbul. 393, p.136

٢- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).

مؤرخ موثوق واسع الاطلاع من مؤلفاته "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" تناول فيه فترة الدولتين النورية (نور الدين محمود بن زنكي) والصلاحية "صلاح الدين يوسف بن أيوب) ويبدأ تاريخه من سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) إلى وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، جمعها من معاصرين واستطاع أن يؤلف بينها بمهارة، واستقى أخباره من عدد من المؤرخين خاصة العماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل، وبهاء الدين بن شداد، وابن الأثير، وابن عساكر، ويعتبر "كتاب الروضتين" من المصادر الهامة لهذه الدراسة. لما احتواه من تفاصيل كثيرة عن الأوضاع في عهد صلاح الدين في المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية.

٣- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).

كتابه "الدارس في تاريخ المدارس" جمع فيه تاريخ المدارس ودور القرآن والحديث والخوانق والتكايا والجوامع والربط والزوايا المعروفة في دمشق منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وذكر فيه تراجم أصحاب المدارس وسير من درسوا فيها، ومن مميزاته أنه جمع فيه بعض أخبار ما هو مشتت في كتب التراجم والتاريخ، وتتبع مصير المدارس التي أنشأت ووصف حالها في زمنه.

وأستطيع القول أنه المرجع الرئيسي الذي تم الاعتماد عليه في هذه الدراسة وحصرنا من خلاله ما أوقفت المرأة في العصر الأيوبي.

٣- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

من المعروف أن كتب الرحلات من المصادر المهمة التي لا يستغني عن الرجوع إليها والاستفادة مما حوته من معلومات تاريخية واقتصادية واجتماعية وإدارية لسد الثغرات في تاريخ منطقة معينة، وقد جاءت رحلة ابن جبير في أوائل العصر الأيوبي لتعطينا صورة حقيقية عن المجتمع الدمشقي من حيث الفئات الاجتماعية والقوى الفاعلة فيه وعادات المجتمع وتقاليده والمرافق في المدن الشامية بالإضافة لبيان التركيبة المذهبية لذلك المجتمع والعلاقات بين المسلمين والفرنجة، وهناك أشياء كثيرة أدهشته وأثارت إعجابه لم يكن معتاداً عليها في المغرب الإسلامي، فبادر ودونها وأخبرنا عنها، ومنها ما يتعلق عن الأوقاف في ذلك العصر.

٤- بدران عبد القادر بن أحمد (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م).

في كتابه "منادمة الأطلال ومسامرة الخيال" نحا منحى النعيمي في كتابه "الدارس في تاريخ المدارس" فبدأ بوصف دور القرآن والحديث فمدارس الشافعية فالحنفية فالمالكية فالحنابلة، ثم مدارس الطب، ثم خوانق الصوفية والربط والزوايا وما اشتهر من الجوامع وختمه بمتنزهات وأنهار دمشق.

وكان بدران يزور هذه المعالم واحدة واحدة ويصفها عن خبرة ومشاهدة فمنها ما درس ومنها ما يزال باقياً إلى اليوم، ولذلك يعد هذا الكتاب مصدراً مهماً لهذه الرسالة إذ أنه سد بعض النقص عند النعيمي وذكر بعض الوقفيات على المراكز العلمية.

٥- ابن كثير، عماد الدين بن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر. المتوفى في دمشق سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.

أرّخ فيه للأحداث منذ بدء الخليفة وحتى سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م واتبع فيه الترتيب الحولي، ويعتبر الجزءان الثاني عشر والثالث عشر من أغنى الأجزاء عن فترة الدراسة، وقد أخذت التراجم حيزاً كبيراً لأن ابن كثير اهتم بتراجم بلاد الشام.

ولم نقتصر على ابن كثير فيما يتعلق بالتراجم فقد اعتمدنا على كتب تراجم أخرى مثل ابن العماد في كتابه العبر في خبر من غبر وابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان.

٦- القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

تعتبر موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"؛ مصدراً أساسياً في دراسة النواحي الإدارية. إذ توفر معلومات غنية جداً عن هذا الجانب، خاصة وأن مصنفها اعتمد على الوثائق التي وقعت بين يديه أثناء عمله رئيساً لديوان الإنشاء. وقد أفادت الدراسة من هذه الموسوعة أنها وفرت نسخاً لتقليد بعض المدرسين للتدريس في مدارس أوقفتها النساء. كما أنها ساهمت في تفسير بعض المصطلحات والمسميات العلمية التي كانت شائعة في الأوساط العلمية في العهد الأيوبي.

٧- ابن طولون، شمس الدين بن علي بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)

كان كتابه "القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية"؛ رافداً جديداً لهذه الدراسة، إذ أمكن من خلاله التعرف إلى المدارس والمراكز التعليمية التي أنشئت بدمشق خلال العهد الأيوبي وبالتحديد في حي الصالحية، وكان مصدراً لوقف بعض المدارس التي أوقفتها النساء والتعرف على بعض أوقافها.

٨- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)

مع أن كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بـ "الخطط المقريزية"، يتعلق بمصر وخططها إلا أنه وردت فيه معلومات هامة عن الحياة الإدارية والعلمية في مصر انسحبت على بلاد الشام، وتمت الاستعانة بمادة هذا الكتاب في الفصل الأول لتوضيح الطفرة التي حدثت في مجال الوقف في العصر الأيوبي، كما رصدنا من خلاله بعض ما أوقفته المرأة خلال العصر الفاطمي.

ب- المراجع الحديثة.

١- محمد الأرناؤوط، "معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر- وقفية سنان باشا

مع أن الفترة الزمنية التي يدرسها الكتاب لا تخص فترة الدراسة (العهد الأيوبي) إلا أنه أفاد الدراسة من خلال الأسلوب والمنهج الذي استطاع من خلاله أن يستنطق الوقفية ويعطي من خلالها صورة تتميز بالمصداقية – لأن الوقفيات لم يرد بها تدوين التاريخ والكتابة التاريخية – عن ملامح العمران والمعلومات الطوبوغرافية لدمشق في تلك الفترة. ومعلومات عن الزراعة والتجارة والمهن والمستوى المعيشي للسكان وغيرها، وقد اقتفيت أثر هذا الكتاب في الفصل الأخير الذي يتحدث عن الملامح الحضارية لدمشق اعتماداً على وقفيات النساء.

٢- قتيبة الشهابي، "مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية"؛

وهو بحث ميداني بعدسة المؤلف مزود بالصور، ويرصد في هذا الكتاب كل ما حوته دمشق من مزارات وأضرحة ومدارس ويبين صفاتها المعمارية، وإلامَ آلت في عصرنا الحاضر، وقد أفاد الدراسة من خلال تدوينه لبعض الكتابات المؤرخة والوقفيات المنقوشة على سواكف أبواب ونوافذ المدارس، والكتابات الموجودة أيضاً على الجدران والأضرحة.

المقدمة:

يعتبر نظام الوقف أحد الأسس المهمة للنهضة الإسلامية، وقد أدى إلى نشاط واسع في الحركة العلمية والعمرانية والصحية ونتج عنه مؤسسات متكاملة في كافة الميادين الحيوية للمجتمع، عملت على ابتكار الحلول لما يستجد من مشكلات.

ومع تعاقب الفترات التاريخية المختلفة للحكم الإسلامي عمل الواقفون على توثيق نصوص أوقافهم في كتب الوقف أو الوقفيات لإعطاء الوقف صبغة شرعية. وهذه الحجج الوقفية أصبحت تصلنا بكثرة منذ العصر الأيوبي ٥٧٠-٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م، مما أصبح يساعدنا أكثر على دراسة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر نظراً للمعطيات الكثيرة التي تتضمنها تلك الحجج. ويمكن القول أنه في هذا العصر بلغ الوقف ذروته مقارنة بالعصور الإسلامية السابقة وشمل جميع مناحي الحياة الدينية والتعليمية والاجتماعية.

وفي العصر الأيوبي بالتحديد توسع دور المرأة وازدادت مشاركتها وتفاعلها مع المجتمع حتى وصل الحد إلى أن تتصدق بعض النسوة بشعورهن ليصنع منه مشدات وقيود لخيل المجاهدين في سبيل الله تعالى. ومع أن الإسلام لم يعط أفضلية للرجل في مجال الوقف إلا أنه من الملاحظ أن إسهام المرأة في الوقف كان محدوداً خلال القرون الهجرية الخمس الأولى.

وبشكل عام يعتبر وقف المرأة من المواضيع التي لم تتطرق لها الدراسات الحديثة إلا قليلاً، وعليه تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ "وقف المرأة في دمشق في العصر الأيوبي ٥٧٠-٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م" لرصد كل الأوقاف التي أوقفتها الخواتين والصالحات ونساء الطبقة العامة ما بين وقف خيري للمجتمع أو وقف ذري يكون محصوراً على ذرية الواقفة.

يلاحظ على الدراسات التاريخية في العقود الأخيرة أنها أخذت تركز على دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، لأنه يساعد بالدرجة الأولى على تصحيح فهمنا للتاريخ السياسي وبواعثه العميقة ويجعله أكثر عقلانية.

ويعتبر موضوع الوقف أحد مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية والتي لم تنل نصيبها من الدراسة المتأنية وأبعادها على المجتمع.

أما فكرة هذه الرسالة فقد جاءت من مقالة نشرت في تشرين الأول في ٢٠٠٦ للدكتور محمد الأرناؤوط بعنوان : "هل الوقف حكر على الرجال؟" وبينت المقالة أن المرأة أيضاً كان لها دور في الوقف في مختلف العصور الإسلامية، وهذا ما بينته بعض الأوراق البحثية التي قدمت

للمؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الأردنية خلال أيلول ٢٠٠٦م التي اطلعت عليها لاحقاً.

ومن هذا المنطلق اخترت وقف المرأة في دمشق في العصر الأيوبي لأن دمشق مركز حضاري كبير ولأن العصر الأيوبي بالذات عصر ازدهرت فيه الأوقاف، ولذلك تقوم هذه الدراسة على فرضية أن المرأة ليست بمعزل عن مجتمعها فهي عنصر فعال فيه، وهذا ما ينطبق على الوقف الذي تميز به المجتمع الإسلامي في العصر الأيوبي. وبمعنى آخر أن هذه الدراسة تسعى إلى أن تبين مدى مساهمة المرأة في الوقف إلى جانب الرجل، في المكان (دمشق) الذي قال عنه الرحالة ابن جبير: "أن الأوقاف تستغرق جميع ما فيه"، وفي زمان هو العصر الأيوبي.

تنطلق الدراسة من أن كتب الأوقاف أو الوقفيات تشكل مصدراً مهماً لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وذلك نظراً إلى الحيز الذي شغله الوقف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ولذلك فإن الدراسة حاولت أن تصل إلى وقفيات جديدة غير معروفة حتى تثبت قيمتها في دراسة التاريخ الاجتماعي، وبالتحديد فيما تضيفه من معطيات جديدة وغير معروفة عن الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت. وقد تمكن الباحث من الوصول إلى بعض وقفيات النساء، التي لم تكن معروفة حتى الآن، والتي أفادت كثيراً هذه الدراسة، وننشرها هنا في الملحق لأول مرة.

ولأجل ذلك تعتمد الدراسة المنهج التاريخي فيما يتعلق تطور الوقف في الفقه والتاريخ خلال القرون الهجرية الخمسة الأولى وصولاً إلى العصر الأيوبي، كما وتستخدم التحليل في تعاملها مع الوقفيات التي أمكن العثور عليها لاستخراج ما فيها من معطيات عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

لقد سعت الدراسة إلى إعطاء تفاصيل عن وقف المرأة من حيث حجم الوقف وأصوله، وهو ما لم يتوفر دائماً، كما سعت إلى إعطاء نبذة عن حياة الواقفات وهو ما لم توفره المصادر إلا عند بعضهن، فعمدنا إلى التعريف بزوج أو والد الواقفة إن لم تتوفر معلومات كافية.

ولم تخرج الدراسة عن الإطارين المكاني والزماني دمشق ٥٧٠-٦٥٨هـ/ ١١٧٤-١٢٦٠م، وقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر التي أغنت البحث من كتب تاريخ عام وتراجم وخطط ورحلات.

وقد قسمت الدراسة إلى خمسة فصول: الفصل الأول؛ وقف المرأة في الفقه الإسلامي وتطوره التاريخي، وقد بينت في هذا الفصل أن الإسلام أعطى المرأة كامل حريتها في التصرف بالأموال التي تمتلكها دون حق تدخل الزوج أو ولي الأمر إن كانت راشدة وبالتالي فلها الحق في أن توقف ما تشاء وعلى من تشاء، ولا تمنع من الوقف إلا إذا كانت أمة (غير حرة). وقد

عرضت لنماذج أوقاف المرأة عبر القرون الخمس الأولى التي سبقت العصر الأيوبي، في أماكن متعددة مثل العراق ومصر واليمن والمغرب، فتبين من خلالها مساهمة فعالة للمرأة في مختلف مناطق العالم الإسلامي.

الفصل الثاني التطور الجديد في الوقف في العصر الأيوبي، وقد حاولت في هذا الفصل أن أبين التطورات التي طرأت على الوقف حيث استجدت أوقاف لم تكن معروفة سابقا، وبينت ذلك التطور ودوافعه من خلال الجانب التعليمي والاجتماعي، فكان العصر الأيوبي بحق عصراً مميزاً في مجال الأوقاف،

الفصل الثالث؛ النساء الواقفات في دمشق في العصر الأيوبي وأوقافهن، واستطعنا حصر ما يقرب من اثنان وعشرون (٢٢) واقفة وكانت غالبية الأوقاف مدارس وخوانق ومساجد، فالعصر الأيوبي الذي اتسم بازدهار الحركة التعليمية لمواجهة التشيع من جهة والإفرنج من جهة أخرى يفرض نفسه على طبيعة وقف المرأة.

الفصل الرابع؛ الآثار التعليمية لوقف المرأة، وتطرقت في هذا الفصل إلى أثر هذه الأوقاف على الناحية التعليمية في دمشق حيث أصبحت مركزاً تعليمياً يرفد قطاعات الدولة بالمتعلمين، ونالت بعض المدارس شهرة واسعة، وهذا كله ترك آثاراً إيجابية على المجتمع بكافة فئاته.

الفصل الخامس؛ معطيات حضارية من وقفيات النساء في دمشق وضواحيها، وذلك اعتماداً على وقفيات لنساء ذلك العصر، مثل المستوى المعيشي للمدرسين والطلاب ومقدار رواتبهم، كما تعرضت للباس والأطعمة والأوزان والمكاييل والفئات التي استفادت من الوقف بشكل مباشر وغيره.

وتبين أن الوقفيات هي صورة حية عن ذلك العصر ومصدر معلومات جديد فهي رافد آخر لمعلوماتنا عن ذلك العصر مع المصادر الأولية.

أما الخاتمة فقد تضمنت النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وأوردت ملحقاً بوقفيات نساء من ذلك العصر وأوردت أيضاً قائمة بالمصادر والمراجع التي أفدت منها في إعداد الدراسة.

تحليل المصادر والمراجع:

اعتمد الباحث في إعداد الدراسة على العديد من المصادر الأساسية التي شملت معلومات غنية غطت جوانب الدراسة ونورد فيما يلي أبرزها:

١- **الحجج الوقفية**، المحفوظة في الأرشيف العثماني المصور التابع لرئاسة الوزراء وهي أربعة وقفيات، وتعد هذه الحجج الوقفية من المصادر المهمة التي اعتمدت الدراسة عليها، وقد تميزت بمصداقيتها ودقتها لأنه لم يرد بها تدوين التاريخ والكتابة التاريخية، بل جاءت لحفظ أصول الوقف وحقوق المنتفعين في المجتمع، وقد أفادتنا بالتعرف على الكثير من الجوانب الحضارية التي تميزت بها مدينة دمشق في العصر الأيوبي مثل الألبسة والأطعمة والمستوى المعيشي للطلاب والعلماء والمعلومات الطبوغرافية وغيرها.

وقد رمزنا لهذه الحجج بحرفي .T.D وتعني طابو دفتري ثم اتبعناها برقم الدفتر ورقم الصفحة. مثلاً وقفية زهرة خاتون .T.D. Istanbul. 393, p.136، وهناك وقفيات وردت ضمن المصادر الأخرى كالنعيمي وغيره، وقسم منها غير مكتمل أشرنا إليها ضمن إشارتنا للمصدر.

٢- **النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).**

كتابه "الدارس في تاريخ المدارس" جمع فيه تاريخ المدارس ودور القرآن والحديث والخوانق والتكايا والجوامع والربط والزوايا المعروفة في دمشق منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وذكر فيه تراجم أصحاب المدارس وسير من درسوا فيها، ومن مميزاته أنه جمع فيه بعض أخبار ما هو مشتت في كتب التراجم والتاريخ، وتتبع مصير المدارس التي أنشأت ووصف حالها في زمنه.

وأستطيع القول أنه المرجع الرئيسي الذي تم الاعتماد عليه في هذه الدراسة وحصرنا من خلاله ما أوقفت المرأة في العصر الأيوبي من مدارس وخوانق، كما أنه أفادنا بذكره للعلماء الذين أسهموا في نهوض الحركة العلمية في ذلك العصر. وإعطاء تفاصيل عن حياة كل منهم.

٣- **بدران عبد القادر بن أحمد (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م).**

في كتابه "منادمة الأطلال ومسامرة الخيال" نحا منحى النعيمي في كتابه "الدارس في تاريخ المدارس" فبدأ بوصف دور القرآن والحديث فمدارس الشافعية فالحنفية فالمالكية فالحنابلة، ثم مدارس الطب، ثم خوانق الصوفية والربط والزوايا وما اشتهر من الجوامع وختمه بمتنزهات وأنهار دمشق.

وكان بدران يزور هذه المعالم واحدة واحدة ويصفها عن خبرة ومشاهدة فمنها ما درس ومنها ما يزال باقياً إلى اليوم، ولذلك يعد هذا الكتاب مصدراً مهماً لهذه الرسالة إذ أنه سد بعض النقص عند النعيمي وذكر بعض الوقفيات على المراكز العلمية.

٤- ابن طولون، شمس الدين بن علي بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)

كان كتابه "القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية"؛ رافداً جديداً لهذه الدراسة، إذ أمكن من خلاله التعرف إلى المدارس والمراكز التعليمية التي أنشئت بدمشق خلال العهد الأيوبي وبالتحديد في حي الصالحية، وكان مصدراً لوقف بعض المدارس التي أوقفتها النساء والتعرف على بعض أوقافها.

٥- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).

مؤرخ موثوق واسع الاطلاع من مؤلفاته "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" تناول فيه فترة الدولتين النورية (نور الدين محمود بن زنكي) والصلاحية "صلاح الدين يوسف بن أيوب) ويبدأ تاريخه من سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) إلى وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، جمعها من معاصرين واستطاع أن يؤلف بينها بمهارة، واستقى أخباره من عدد من المؤرخين خاصة العماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل، وبهاء الدين بن شداد، وابن الأثير، وابن عساكر، ويعتبر "كتاب الروضتين" من المصادر الهامة لهذه الدراسة. لما احتواه من تفاصيل كثيرة عن الأوضاع في عهد صلاح الدين في المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية.

٦- ابن كثير، عماد الدين بن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر. المتوفى في دمشق سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.

أرّخ فيه للأحداث منذ بدء الخليفة وحتى سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م واتبع فيه الترتيب الحولي، ويعتبر الجزءان الثاني عشر والثالث عشر من أغنى الأجزاء عن فترة الدراسة، وقد أخذت التراجم حيزاً كبيراً لأن ابن كثير اهتم بتراجم بلاد الشام.

ولم نقتصر على ابن كثير فيما يتعلق بالتراجم فقد اعتمدنا على كتب تراجم أخرى مثل ابن العماد في كتابه العبر في خبر من غبر وابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان.

٧- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

من المعروف أن كتب الرحلات من المصادر المهمة التي لا يستغني عن الرجوع إليها والاستفادة مما حوته من معلومات تاريخية واقتصادية واجتماعية وإدارية لسد الثغرات في تاريخ منطقة معينة، وقد جاءت رحلة ابن جبير في أوائل العصر الأيوبي لتعطينا صورة حقيقية عن المجتمع

الدمشقي من حيث الفئات الاجتماعية والقوى الفاعلة فيه وعادات المجتمع وتقاليده والمرافق في المدن الشامية بالإضافة لبيان التركيبة المذهبية لذلك المجتمع والعلاقات بين المسلمين والفرنجة، وهناك أشياء كثيرة أدهشته وأثارت إعجابه لم يكن معتاداً عليها في المغرب الإسلامي، فبادر ودونها وأخبرنا عنها، ومنها ما يتعلق عن الأوقاف في ذلك العصر.

٨- القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

تعتبر موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"؛ مصدراً أساسياً في دراسة النواحي الإدارية. إذ توفر معلومات غنية جداً عن هذا الجانب، خاصة وأن مصنفها اعتمد على الوثائق التي وقعت بين يديه أثناء عمله رئيساً لديوان الإنشاء. وقد أفادت الدراسة من هذه الموسوعة أنها وفرت نسخاً لتقليد بعض المدرسين للتدريس في مدارس أوقفتها النساء. كما أنها ساهمت في تفسير بعض المصطلحات والمسميات العلمية التي كانت شائعة في الأوساط العلمية في العهد الأيوبي.

٩- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)

مع أن كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بـ "الخطط المقريزية"، يتعلق بمصر وخططها إلا أنه وردت فيه معلومات هامة عن الحياة الإدارية والعلمية في مصر انسحبت على بلاد الشام، وتمت الاستعانة بمادة هذا الكتاب في الفصل الأول لتوضيح الطفرة التي حدثت في مجال الوقف في العصر الأيوبي، كما رصدنا من خلاله بعض ما أوقفته المرأة خلال العصر الفاطمي.

ب- المراجع الحديثة.

١- محمد الأرناؤوط، "معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر- وقفية سنان باشا

مع أن الفترة الزمنية التي يدرسها الكتاب لا تخص فترة الدراسة (العهد الأيوبي) إلا أنه أفاد الدراسة من خلال الأسلوب والمنهج الذي استطاع من خلاله أن يستنطق الوقفية ويعطي من خلالها صورة تتميز بالمصداقية عن ملامح العمران والمعلومات الطوبوغرافية لدمشق في تلك الفترة. ومعلومات عن الزراعة والتجارة والمهن والمستوى المعيشي للسكان وغيرها، وقد اقتفيت أثر هذا الكتاب في الفصل الأخير الذي يتحدث عن الملامح الحضارية لدمشق اعتماداً على وقفيات النساء.

٢- قتيبة الشهابي، "مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية"؛

وهو بحث ميداني بعدسة المؤلف مزود بالصور، ويرصد في هذا الكتاب كل ما حوته دمشق من مزارات وأضرحة ومدارس ويبين صفاتها المعمارية، وإلامَ آلت في عصرنا الحاضر، وقد أفاد الدراسة من خلال تدوينه لبعض الكتابات المؤرخة والوقفيات المنقوشة على سواكف أبواب ونوافذ المدارس، والكتابات الموجودة أيضاً على الجدران والأضرحة.

الفصل الأول:

وقف المرأة في الفقه الإسلامي
وتطوره التاريخي حتى العصر الأيوبي

وقف المرأة في الإسلام وتطوره التاريخي حتى العصر الأيوبي

لقد شاع في الأذهان ارتباط الوقف بالرجل سواء في العصور الإسلامية الأولى أو حتى في وقتنا الحاضر.

فمن المعروف أن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بالأحكام والعقود والتصرفات القولية والمالية من التبرع والهبة والوصية وما إلى ذلك.

فالإسلام جعل للمرأة متزوجة وغير متزوجة كيانها الذاتي واستقلالها الشخصي وذمتها المالية المنفصلة تماماً عن ذمة أبيها وذمة زوجها، لا شأن للزوج ولا لغيره بمالها بل تتصرف فيه ما دامت عاقلة مميزة رشيدة، بكل التصرفات كالرجل تماماً، فتبيع وتشتري وتهب وتوصي وتتبرع وترهن وتؤجر وتستأجر إلى غير ذلك من التصرفات القانونية وليس لأحد ولا لزوجها أن يتصرف في شيء من أموالها بدون إذنها أو وكالته عنها"[١].

القاعدة تقول: من كان يملك له حق الهبة، والمرأة – كما سبق– لها حق التملك المشروع من خلال استقلال الذمة المالية لها وحصولها على مالها الخاص بها[٢].

ومن أبرز مجالات التصرف الوقف، إذ مارست المرأة فيه التحبيس والشهادة والوكالة والنظارة كما كانت وصيّة على القصر واليتامى، فاحتلت المرأة مكانة مرموقة كمحبسة وباذلة الغالي والنفيس في سبيل الخير العام وشؤون المجتمع المختلفة[٣].

وبهذا سبق الإسلام غيره من النظم في تقرير استقلال المرأة في تصرفاتها القانونية وذمتها المالية[٤].

إذن فقد منح الإسلام المرأة حرية إدارة أموالها بكل حرية تماماً كالرجل وكذا في مجال الأوقاف فلها أن توقف ما تشاء وعلى من تشاء وتختار ناظراً للوقف أياً من تشاء.

وفي المقدمة المعتادة للكتب الفقهية التي تعالج موضوع الوقف سواء كانت مصادر أو مراجع، نجدها دائماً تبدأ بتعريف الوقف ومشروعيته وأركانه وشروطه، وأن شروط الواقف عند

---

(١) خيرت، أحمد، **مركز المرأة في الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٤٠، وسيشار له لاحقاً: خيرت، مركز المرأة.

(٢) النجار، إبراهيم عبد الهادي، **حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية**، مكتبة دار الثقافة، عمان، ١٩٩٥م، ص٢٤٨. وسيشار له لاحقاً: النجار، حقوق المرأة في الشريعة.

(٣) بنبلغيث، الشيباني، المرأة في تونس من خلال الأحباس خلال العصر الحديث، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، عدد ٣٣، تونس، ٢٠٠٦م، ص ٤٦.

(٤) خيرت، **مركز المرأة في الشريعة**، ص٤٠.

كل من كتب عن هذا الموضوع من الأوائل أو المتأخرين هي واحدة على الأغلب، فلم تشترط الذكورة- بمعنى أن يكون الواقف رجلاً- أو ما يمنع أن تكون الأنثى واقفة.

إذن لا يوجد ما يمنع أن تكون المرأة واقفة، وكما يجوز للمرأة أن تكون واقفة يجوز لها أن تكون ناظرة على الوقف "قال في الإنصاف: يشترط في الناظر الإسلام والتكليف والكفاية في التصرف والخبرة والقوة عليه، ويضم إلى الضعيف قوي أمين وإن كان النظر للموقوف عليه إما بجعل النظر له أو لكونه أحق بذلك عند عدم ناظر فهو أحق بذلك رجلاً كان أو امرأة"[٥].

أما في الأثر ففي استعراضنا لكتاب "أحكام الأوقاف" لأبي بكر الشيباني المشهور بالخصاف (ت٢٦١هـ/٨٧٤م)، الذي يعتبر أول كتاب فقهي متخصص بالوقف نجده يذكر الأوقاف التي أوقفتها نساء النبي ﷺ وفي هذا مشروعية قاطعة بجوازه. فهذه عائشة رضي الله عنها التي اشترت داراً وكتبت في شرائها "إني اشتريت داراً وجعلتها لما اشتريتها له فمنها مسكن لفلان ولعقبه ما بقي بعده إنسان ومسكن لفلان وليس في ولعقبه ثم يرد ذلك إلى آل أبي بكر"[٦].

وهذه أختها أسماء بنت أبي بكر التي تصدقت بدارها صدقة حبس لا تباع ولا توهب ولا تورث[٧].

وكذلك وقف أم سلمة، ووقف أم حبيبة التي بالغابة فقد تصدقت على مواليها وعلى أعقابهم وعلى أعقاب أعقابهم حبساً لا تباع ولا توهب ولا تورث تخاصم من يرثها[٨].

ووقف صفية بنت حيي إذ وقفت لبني عبدان صدقة حبساً لا تباع ولا تورث حتى يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها[٩].

ولم تحرم التابعيات أنفسهن من ثواب الوقف فهذه عمرة بنت عبد الرحمن أوقفت وولت ابنها نظارة الوقف[١٠].

وما دام أن نساء النبي ﷺ قد أوقفن ولم يعترض الرسول ﷺ على ذلك، فلا خلاف في أن وقف المرأة كوقف الرجل تماماً، وهذا ما أدركته المسلمات في العهود اللاحقة، حيث أصبحنا نرى أشكالاً متعددة لوقف المرأة من مساجد ومدارس وبيمارستانات ووقف على الأيتام.

---

(٥) البهوتي، منصور بن يونس، **الروض المربع شرح زاد المستنقع**، ج٢، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٧٠م، ص٤٦٤. وسيشار له لاحقاً: البهوتي، الروض المربع.

(٦)الخصاف، أبو بكر الشيباني (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، **أحكام الأوقاف**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٠٨، ص١٣، وسيشار له لاحقاً: الخصاف، أحكام الأوقاف.

(٧) **المرجع نفسه**، ص١٣.

(٨) **المرجع نفسه**، ص١٣.

(٩) الخصاف، **أحكام الأوقاف**، ص١٤.

(١٠) **المرجع نفسه**، ص١٨.

وإذا أخذنا نموذجاً متأخراً– قريب من فترة الدراسة– من كتب الفقه التي تعالج موضوع الوقف مثل كتاب "فتاوى ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)" نجد أنه يذكر في فتاويه – ضمن كتاب الوقف، بعض المسائل عن وقف المرأة وهي مسائل عادية عن نظارة الوقف وفروع الواقفة وغيرها من المسائل.

وفي الدولة العباسية تزودنا المصادر بين الحين والآخر عن الواقفات فإما أن يكنّ أمهات الخلفاء وزوجاتهم أو من الجواري وهؤلاء كثر أو من العامة، وفي تتبعنا للتطور التاريخي لوقف المرأة فإننا سنذكر أبرز الواقفات دون إسهاب.

فهذه هيلانة جارية الخليفة المنصور العباسي (ت ١٨٥هـ/٨٠١م) كانت قد أنشأت حوضاً في الجانب الشرقي من بغداد وأوقفت عليه[١١].

وأم الخليفة الأمين (١٩٣–١٩٨هـ/٨٠٩–٨١٣م) والمسماة بزبيدة[١٢](ت ٢١٦هـ/٨٣١م) توصف بأنها صاحبة معروف كثير وفعل خير، فقد بنت البرك والآبار والصهاريج بمكة، كما أنها أقامت خزانات المياه على الطريق بين مكة والمدينة، كما بنت صهاريج مياه ومحطات ما بين بغداد ومكة[١٣].

هذا فضلاً عن الأربطة التي بنتها وقد زارها الرحالة ناصر خسرو أثناء رحلته وكانت تقدم خدمات مجانية للمسافرين[١٤].

وأم الخليفة[١٥] المقتدر (ت٣٢١هـ/٩٤٢م)، التي افتتحت البيمارستانان الذي أوقفته عام

---

(١١) البرهاوي، رعد محمود أحمد، **خدمات الوقف الإسلامي وآثاره في مناحي الحياة**، دار الكتاب الثقافي، إربد، ٢٠٠٦م، ص ١٥٦. وسيشار له لاحقاً: البرهاوي، خدمات الوقف.

(١٢) زبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه، كانت أحب الناس إلى الرشيد، ذات حسن باهر، وكان له معها من الحظايا والجواري والزوجات غيرها كثير، وقد حجت مرة فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم، توفيت في بغداد سنة ٢١٦هـ. ابن كثير، الإمام أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، ج١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٦٦، وسيشار له لاحقاً: ابن كثير، البداية والنهاية.

(١٣) ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م، ص٢٤٢ وسيشار له لاحقاً: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(١٤) ناصر خسرو، **سفرنامة**، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٥٦. وسيشار له لاحقاً: ناصر خسرو، سفرنامة.

(١٥) هي شغب الملقبة بالسيدة كان دخلها من أملاك المقتدر في كل سنة ألف ألف دينار، فكانت تتصدق بأكثر ذلك على الحجيج في أشربة وأزواد، وأطباء يكونون معهم ، وفي تسهيل الطرقات والموارد، وكانت في غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة أيام ولدها، فلما قتل كانت مريضة، فزادها قتله مرضاً إلى مرضها، ولما

٣٠٦هـ/ ٩١٨م، في منطقة سوق يحيى على نهر دجلة في بغداد وعين فيه أطباء يشرف الطيب عليهم سنان بن ثابت وبلغت نفقات هذا البيمارستان في الشهر ٦٠٠ دينار، وهذا ما دفع الخليفة نفسه "المقتدر" إلى بناء مستشفى يحمل اسم المقتدري في منطقة باب الشام[١٦].

ومن الواقفات أيضاً جارية الخليفة العباسي المقتدي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) والتي تدعى شمس النهار التي بنت رباطاً في مكة وأسمته "رباط الفقاعية" إذ أوقفته على الأرامل سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٥٨م فيقوم باستقبالهم والعناية بهم وتقديم المسكن والمأكل والملبس والرعاية[١٧].

أما أشهر الواقفات والتي نُصادف اسمها في أغلب المصادر الجارية "بنفشا[١٨]" (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) جارية الخليفة العباسي المستضي (ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م) وقد كانت ذا حظوة عند الخليفة وتتمتع بنفوذ قوي كما أنها لعبت دوراً في إدارة الدولة، فقد أمرت عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م بنصب جسر من الحديد وكتب اسمها على حديدة من سلسلة وجعل تحت الرقه، ونقلت الجسر العتيق إلى نهر عيسى فوجد الناس راحة عظيمة بوجود الجسرين[١٩].

وأوقفت كذلك الرباط المشهور المسمى باسمها في بغداد "رباط بنفشا"[٢٠].

ومن الواقفات الشهيرات أيضاً جميلة بنت ناصر[٢١] الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني كانت من أجمل الناس عقلاً وجمالاً. وقيل أنها لم تتزوج لشهامة عندها حتى لا يحكم عليها أحد من الرجال[٢٢]. وقد كانت من ألمع نساء عصرها في القرن الرابع الهجري على صعيد السياسة،

استقر أمر القاهر في الخلافة، طلبها وهي مريضة فعاقبها عقوبة عظيمة جداً. توفيت ٣٢١هـ/٩٣٣م. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١١، ص ١٨٧-١٨٨.

(١٦) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨١٣هـ/ ١٤١٠م)، **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص١٣٩. وسيشار له لاحقاً: ابن تغري، النجوم الزاهرة.

(١٧) البرهاوي، **خدمات الوقف**، ص٦٠.

(١٨) بنفشا بنت عبد الله، عتيقة المستضيء، كانت من أكبر حظاياه، ثم صارت بعده من أكثر الناس صدقة وبراً وإحساناً إلى العلماء والفقراء، لها عند تربتها ببغداد عند تربة معروف الكرخي صدقات وبر. توفيت ٥٩٨هـ. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٣٧.

(١٩) خريسات، محمد عبد القادر، **المرأة والمشاركة السياسية في ظل الدولة الإسلامية**، ط١، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م، ص١٩٦. وسيشار له لاحقاً : خريسات، المرأة والمشاركة السياسية.

(٢٠) البرهاوي، **خدمات الوقف**، ص١٩٨.

(٢١) جميلة بنت ناصر الدولة الحسنة بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل، لما تغلب أخوها على أبيها سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م وقفت إلى جانبه وساعدته في الحكم. راجع، مسكويه، **تجارب الأمم**، ج٤، ص ٣٨٥.

(٢٢) الموصلي، ياسين الخطيب العمري بن خير الله (ت ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)، **الروضة الفيحاء في تواريخ النساء**، الدار العالمية للطباعة والنشر (د.ت)، ص ٣٧٠. وسيشار له لاحقاً: الموصلي، الروضة الفيحاء.

والإدارة، وقد لعبت دوراً مهماً في حياة أبيها وأخيها أبو تغلب (ت ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م). يذكر أنها أوقفت على جامع النبي يونس في الموصل أوقافاً جليلة[٢٣].

ونبقى في الموصل فهذه زمرد[٢٤]بنت جاولي صاحب مدينة الموصل، تزوجها تاج الملك بوري[٢٥] بن طغتكين صاحب مدينة دمشق وأصدقها أربعين ألف دينار وتحف، وأبرز ما يذكر لها المدرسة التي بنتها ظاهر دمشق سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، وأوقفت لها أوقافاً كثيرة[٢٦].

وأخرى هي الخاتون صفوة الملك السلجوقية كانت قد أوقفت خانقاه لابنها المتوفي شمس الملوك دقاق بن تتش (ت ٤٩٧هـ/١١٠٣م) وسمتها الخانقاه الطواويسية سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م[٢٧].

أما في الدولة الفاطمية فاهتمت المرأة بالوقف على الجوامع والمساجد التي كانت تؤدي بالأساس أدواراً علمية، فهذا جامع القرافة هو أحد منشآت السيدة تغريد زوجة الخليفة المعز وأم العزيز بالله. ولما كان بناء جامع القرافة عام (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) فهو يعد ثاني جامع أقامه الفاطميون في مصر بعد الجامع الأزهر، وكان هذا الجامع كسائر الجوامع الكبيرة في مصر والقاهرة يقام فيه صلاة الجمعة وقد تعرض للحريق عند خراب الفسطاط عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٢٨].

وحين تذكر السيدة علم الآمرية زوجة الخليفة الآمر بأحكام الله يذكر معها مجموعة من المساجد مثل مسجد السيدة رقية التي أقامته عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م، وفي هذا المسجد تابوتاً خشبياً عليه نقوش كتابية "هذا ضريح السيدة رقية ابنة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب".

---

(٢٣) البرهاوي، **خدمات الوقف**، ص٥٠.

(٢٤) زمرد خاتون بنت جاولي أخت الملك دقماق بن تتش لأمه، وقد أوقفت مدرستها الخاتونية على الشيخ برهان الدين علي بن محمد البلخي الحنفي، كانت حنفية المذهب تحب العلماء والصالحين، كانت كثيرة البر والصدقات والصلاة والصوم، ولم تمت حتى قل ما بيدها. (ت٥٥٧هـ/١١٦١م). ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٢٦٤.

(٢٥) بوري تاج الملوك صاحب دمشق وابن صاحبها طغتكين، مملوك تاج الدولة تتش السلجوقي، قتلة الباطنية سنة ٥٢٦هـ/ ١٣١١م. الذهبي، **العبر**، ج٢، ص٤٢٨.

(٢٦) الموصلي، **الروضة الفيحاء**، ص٣٧٤.

(٢٧) العلبي، أكرم حسن، **خطط دمشق**، ط١، دار الطباع، دمشق، ١٩٨١م، ص٢٠٤ وسيشار له لاحقاً: العلبي، خطط دمشق.

(٢٨) المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية**، ج٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص٣٢٥-٣٢٦. وسيشار له لاحقاً: المقريزي، الخطط.

ومسجد النارنج وأطلق عليه هذا الاسم لأن نارنجه لا ينقطع أبداً، وقد أخرجت له أموالاً كثيرة في عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م[٢٩]، ومسجد الأندلس الذي بني عام ٥٢٦هـ/١١٣١م[٣٠].

بالإضافة لذلك أسهمت سيدات من خارج الأسرة الفاطمية بالوقف على المساجد أيضاً، مثل ست غزال التي بنت مسجداً حمل اسمها عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، ويذكر عنها أنه كان لها منصب كتابي في قصر الخليفة ولا تعرف شيئاً إلا أحكام الدوى والليق ومسح الأقلام والدواة، وكان برسم خدمتها مأمون الدولة الطويل[٣١].

وفي المغرب الإسلامي ساهمت النساء الصالحات في بناء الصرح الحضاري للأمة الإسلامية، حيث رصد التاريخ الحديث عدة مخطوطات تتحدث عن سيرهن حيث حفظن القرآن وعلومه وخصصن أيامهن للكسب والعلم ولياليهن للذكر والقيام ووقفن أنفسهن على تفريج الكرب وخدمة أهل العلم وتقديم الطعام للحجاج، كثيرات من العالمات والعابدات كن قد أوقفن ثروتهن لخدمة الحجيج منهن فاطمة بنت محمد التي انزوت في جبال منطقة أكاديد للعلم والعبادة وتزويد الحجيج[٣٢].

إلا أن أبرز الواقفات المغربيات هي أم البنين فاطمة الفهرية والتي يعتبر وقفها أهم وأبرز وأقدم وقف في تاريخ الأوقاف في المغرب العربي.

والفهريون كانوا من عداد المهاجرين القيروانيين الذين لجأوا إلى فاس منذ الأيام الأولى للإمام إدريس بن إدريس، ومن بين هؤلاء الفقيه محمد بن عبد الله الفهري القيرواني الذي أدركه أجله بعد وصوله فترك ثروة طيبة لكريمتيه فاطمة أم البنين ومريم أم القاسم. فعزمت كل منهما على إنجاز مشروع ظل شاخصاً إلى اليوم[٣٣].

فقامت فاطمة ببناء جامع القرويين سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، ولم تزل صائمة إلى أن أكملته، وصلت فيه شكراً لله على أن وفقها لإتمامه ويعتبر مسجد القرويين جامعاً لاجتماع جميع سكان

([٢٩]) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص ٦٥١. راجع أيضاً: أحمد، ناريمان عبد الكريم، **المرأة في العصر الفاطمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٦٢-٦٣. وسيشار له لاحقاً: أحمد، المرأة في العصر الفاطمي.

([٣٠]) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص٦٥٢.

([٣١]) **المصدر نفسه**، ج٣، ص ٦٦٠.

([٣٢]) مفيد، خديجة، المرأة والوقف- التجربة المغربية، **مجلة أوقاف الكويت**، س٦، ع١٠، ٢٠٠٦م، ص ١٦٤. وسيشار له لاحقاً: مفيد، المرأة والوقف.

([٣٣]) التازي، عبد الهادي، **المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي**، الناشر: الفنك، الدار البيضاء، ١٩٩٢م، ص٦٧، وسيشار له لاحقاً: التازي، المرأة في تاريخ الغرب.

المدينة، وقد لعب دوراً مهماً في حفظ الحياة الدينية والعلمية في العالم الإسلامي[٣٤]، إن هذه المبادرة العظيمة من هذه المرأة كانت مصداقاً لعبارة ابن خلدون: "فكأنما نبهت عزائم الملوك من بعدها"[٣٥].

وقد أقبل ملوك المغرب على توسعته حتى انتهى إلى ما انتهى إليه، وكتب المؤرخ المغربي ابن أبي زرع في كتابه "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، فصلاً طويلاً عن جامع القرويين وما أضيف إليه في كل عهد منذ تأسيسه حتى وقت تأليف الكتاب في ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٣٦].

كما نذكر من الواقفات المغربيات مريم الفهري أم القاسم، إذ اختارت البقعة التي بنت فيها الجامع الذي حمل اسم الأندلس اعتباراً للجالية الأندلسية التي اختارت تعمير الضفة الشرقية على نحو اختيار فاطمة للبقعة التي بنت فيها جامع القرويين. وابتدأ البناء في المسجد سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، بعد أن اشترت أرضه بوجه صحيح وأنفقت في ذلك كله من مالها المورث عن أبيها[٣٧].

ويذكر أن هذا الجامع أصبح ملحقاً من ملحقات جامع القرويين بعد فترة[٣٨].

وسيدة أخرى هي البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، كانت متبتلة شديدة الرغبة في الخير، تكتب المصاحف وتحبسها، وهي واقفة المسجد الذي بربض الرصافة، توفيت سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م[٣٩].

وتعدى الأمر إلى الجواري، فهذه الجارية القيروانية فضل مولاة أبي أيوب التي خطت المصحف بجامع القيروان ببراعة باهرة ووقفته على القراء وهذا نص حجة الوقف "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما حبست فضل مولاة أبي أيوب أحمد بن محمد رحمها الله طلباً لثواب الله والدار الآخرة، رحم الله من قرأ فيها "أي الختمة" ودعا لصاحبتها وكتبته فضل بخطها في المحرم سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م[٤٠].

---

(٣٤) مفيد، **المرأة والوقف**، ص١٦٤-١٦٥.

(٣٥) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ط٢، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٨. وسيشار له لاحقاً: ابن خلدون، العبر.

(٣٦) الأرناؤوط، محمد، **إعادة الاعتبار إلى وقف المرأة في التراث**، جريدة الحياة، بيروت، ١٦ شباط، ٢٠٠٨م.

(٣٧) التازي، **المرأة في تاريخ الغرب**، ص ٧١.

(٣٨) مفيد، **المرأة والوقف**، ص١٦٥.

(٣٩) التازي، **المرأة في تاريخ الوقف**، ص٧٥.

(٤٠) التازي، **المرأة في تاريخ الغرب**، ص٧٩.

وفي اليمن وبالتحديد في أواخر الدولة الصليحية ٤٣٩-٥٣٢هـ/١٠٤٧-١١٣٧م تظهر السيدة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي التي تصفها المصادر بأنها كانت على قدر كبير من رجاحة العقل وبعد النظر وقوة الإدراك حتى أنها كانت تلقب بـ "بلقيس الصغرى"[٤١].

وقد شاركت زوجها المكرم بن علي في الحكم ثم زوجها اللاحق سبأ بن أحمد حيث استقلت بعدها في حكم هذه الدولة إلى أن توفيت عن ٨٨ عاماً سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م[٤٢].

ومن مآثرها في مجال الوقف أنها اهتمت بالثروة الحيوانية فأوقفت لها الأراضي الواسعة، ومنها مرعى حلبة السيدة في ضاحية مدينة "إب" والتي مساحتها مئات الفدانات، كما أوقفت الأرض ليصرف ريعها لشراء فحول الضراب. "التلقيح".

كما عمرت كثيراً من المساجد وأوقفت على إقامتها وصيانتها الأموال الكثيرة منها جامع ذي جلة الكبير والذي فيه قبرها[٤٣].

ولكن الدور الأبرز لنساء اليمن نجده يظهر بشكل واضح في عهد الدولة الرسولية ٦١٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٨-١٤٥٤م التي تزامنت مع الدولة الأيوبية[٤٤].

ومن خلال هذه الإطلالة على أبرز ما أوقفته المرأة خلال القرون الخمس الأولى للهجرة، نلاحظ أن أبرز الواقفات هن من طبقة الحكام والأمراء على الأغلب، وهذا لا يعني إغفال دور نساء الطبقة العامة وإنما الأمر يعود للمؤرخين، الذين نقلوا أعمال وإنجازات الحكام والأمراء ونسائهم وأغفلوا ما قامت به نساء العامة.

كما لاحظنا أن مراكز المدن هي التي تركزت فيها أوقاف النساء، وهذا أمر طبيعي لأن الواقف رجلاً كان أو امرأة يهدف دائماً إلى أن تصل المنفعة إلى أكبر عدد ممكن من فئات السكان.

---

(٤١) الحداد، محمد يحيى، **تاريخ اليمن السياسي (٢)، من عصر الإمام الهادي إلى سقوط دولة الإمامة**، ط٤، دار التنوير للطباعة، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٤٨. وسيشار له لاحقاً: الحداد، تاريخ اليمن السياسي (٢).

(٤٢) الأرناؤوط، محمد، **مساهمة المرأة من خلال الدولة الرسولية في اليمن**، ص٢، بحث قيد النشر.

(٤٣) الحداد، **تاريخ اليمن السياسي (٢)**، ص٥٢- ٥٣.

(٤٤) للمزيد عن دور المرأة في هذه الحقبة راجع: الأرناؤوط، محمد، **مساهمة المرأة في الوقف خلال الدولة الرسولية**، بحث تحت النشر.

الفصل الثاني:

التطور الجديد في الوقف في العصر الأيوبي

- الجانب التعليمي: مدارس.
- الجانب الاجتماعي: خوانق، ربط، زوايا، بيمارستانات.
- تطورات أخرى في الوقف.

التطور الجديد في الوقف في العصر الأيوبي

بعدما برز نور الدين زنكي كقائد له شخصية متميزة في الحرب ضد الفرنجة في بلاد الشام أدرك أهمية وضع يده على مصر، وذلك بعد الصراع الذي نشب بين وزرائها مما أغرى الجميع بالطمع فيها، فوجه حملة من الحملات إلى مبصر بقيادة أسد شيركوه، واصطحب معه في إحداها ابن أخيه صلاح الدين. غير أن شيركوه لم يلبث أن قضى نحبه في ٥٦٤هـ/١١٦٩م، ولم تتجاوز مدة وزارته شهرين، فمهد بذلك الطريق إلى صلاح الدين الذي سرعان ما تولى الوزارة الفاطمية[٤٥]. فكانت الخطوة الجريئة التي طالما انتظرها الجميع وألحّ عليها نور الدين زنكي، وهي قطع الخطبة عن العاضد (ت ٥٦٧هـ/١١٧١م) الفاطميي، والخطبة للخليفة العباسي المستضي (ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م).

وقبل أن يقوم صلاح الدين بذلك استشار الأمراء، فمنهم من أقدم على تأييده ومنهم من تردد، وكان بمصر رجل أعجمي اسمه الخبوشاني، فأعلن استعداده لإعلان سقوط الخليفة الفاطمي، فألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، ولم يحتج أحد، وكان العاضد اشتد به المرض فلم يدر شيئاً عما حدث فمات في نفس العام[٤٦].

ومع أن قطع الخطبة قد تم دون أن يحتج أحد، و"دون أن ينتطح فيه عنزان"[٤٧] كما يقول ابن الأثير، إلا أن صلاح الدين كان يدرك أن الأمر لن يمضي دون متاعب، فقام مؤتمن الخلافة كبير الطواشية قائد الجند السودانيين، وراح يحيك الدسائس والمؤامرات ضد صلاح الدين، وحاول أن يتصل بعموري الأول ملك بيت المقدس الإفرنجي لتحريضه على مهاجمة مصر، غير أن صلاح الدين وقف على خيوط المؤامرة، ثم بعد ذلك أمر بإعدامه[٤٨].

ثم قام الجند السوداني بثورة أدت إلى معركة بين الطرفين فرجحت كفة صلاح الدين، وأجهز أخاه توران شاه عليهم[٤٩].

فصلاح الدين الأيوبي أسقط الخلافة الفاطمية التي استمرت في مصر ما ينوف على القرنين، وهي دولة استطاعت بوسائلها المختلفة أن تبسط سلطانها السياسي والديني في هذه

---

(٤٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٢٧٨.

(٤٦) ابن الأثير، عز الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٦م، ص٣٦٨-٣٦٩. وسيشار له لاحقاً: ابن الأثير، الكامل.

(٤٧) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص ٣٦٥.

(٤٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٤٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص ٣٦٢.

المنطقة من العالم الإسلامي[٥٠]. فهو لا يمتلك الشرعية في حكم مصر بنظر من ظلوا على ولائهم للحكم الفاطمي. وبالمقابل فهو مدرك لذلك أتم الإدراك، فما كان منه إلا أن لجأ إلى نظام الوقف كوسيلة من الوسائل التي يدعم بها حكمه في مصر أولاً ولاحقاً في بلاد الشام. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه سيكسب العامة إلى جانبه، لأن الوقف بطبيعة الحال له آثار إيجابية على المجتمع. ولذلك "استمال قلوب الناس، وأقبل على الجد وترك اللهو، وعزل الشيعة وبنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية ومدرسة للفقهاء الشافعية"[٥١].

ولهذا أخذ الوقف يصبح في خدمة الدولة الجديدة (الأيوبية)، وبالتحديد في خدمة السياسة الدينية والتنفيذية لنظام الحكم القائم آنذاك.

وعليه لن يبقى الوقف محصوراً على الأشكال النمطية التقليدية المعتادة مثل المدارس والمساجد بل ستتعدد الصور وتتنوع الأشكال إلى درجة أن يعتبر المؤرخون العصر الأيوبي بأنه عصر الطفرة في نظام الوقف. فهذا محمد أمين في كتابه "الأوقاف والحياة الاجتماعية" يصفه بأنه عصر نقلة جديدة في نظام الوقف بمختلف مظاهره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأنه وضع الأساس لتطور كبير في العصر المملوكي"[٥٢].

وحتى تظهر الصورة بشكل جلي عن التطور الجديد في الوقف في العصر الأيوبي. فإننا سنقسم هذا الباب لجانبين: الجانب الأول (التعليمي)، الذي يعنى بالمدارس ودور القرآن والمساجد، وهذه وإن كان وقفها مألوفاً من قبل إلا أنها ازدادت بشكل كبير في العصر الأيوبي.

أما الجانب الثاني فهو الجانب "الاجتماعي"، بمعنى ماذا قدم الوقف من أشياء جديدة للمجتمع.

---

(٥٠) العريني، السيد الباز، **الأيوبيون**، ط١، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٧٢، ص٢١٨، وسيشار له لاحقاً: العريني، الأيوبيون.

(٥١) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص ١١٤.

(٥٢) أمين، محمد محمد، **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م**، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٧١. وسيشار له لاحقاً: محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية.

الجانب التعليمي:

لم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم بما قدمته أماكن العبادة من توفير مراكز لقراءة القرآن الكريم، أو تعليم الأطفال بل امتد ليشمل إقامة مؤسسات الهدف من وجودها ممارسة ونشر التعليم.

وعندما نذكر المدارس فإننا نذكر نظام الملك[٥٣]، الحسين بن علي إسحق الطوسي" (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) وزير السلطان ألب أرسلان الذي اعتلى الحكم سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وكان من سياسة هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الإسماعيلية سياسياً وهو ما سار عليه السلاجقة منذ أن استتب لهم الأمر في خراسان لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى المقاومة السياسية مقاومة فكرية، وذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية فإنهم قد نشطوا إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة. وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان.

فالبويهيون لم يألوا جهداً في تشجيع الإمامية على نشر فكرهم، كما غضوا الطرف عن نشاط دعاة الإسماعيلية في فاس والعراق وترتب على ذلك كله تزايد نفوذ الشيعة فيهما، خاصة بعد أن لجأ الشيعة إلى إنشاء مؤسسات تعليمية تتولى الترويج لعقائدهم[٥٤].

لذلك كله فكر نظام الملك أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه لأنه الذي جد في إنشائها وخطط لها وأوقف عليها الأوقاف الواسعة واختار لها الأكفاء من السادة[٥٥].

وقد كان لهذه السياسة أثر فعال في تقليص نفوذ الحركات الشيعية، ولكنها كانت الخطوة الأولى والسنة الحسنة التي استنها نظام الملك وسار عليها من أتى بعده.

---

(٥٣) نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق، وزير للملك أرسلان وولده ملكشاه تسعاً وعشرين سنة. ولد بطوس، اشتغل بالعلم والقراءات التفقه على المذهب الشافعي وسماع الحديث واللغة والنحو وكان عالي الهمة، ثم ترقى في المراتب حتى وزر للسلطان ألب أرسلان ثم من بعده ملكشاه، بنى المدارس النظامية في بغداد ونيسابور وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء، وكان يعظم الصوفية تعظيماً زائداً، قتل بالقرب من نهاوند سنة ٤٨٥هـ/١٠٥٨م وقد اتهم السلطان ملكشاه في أمره. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص١٤٩-١٥٠.

(٥٤) فياض، عبد الله، **تاريخ التربية عند الإمامية**، بغداد، ١٩٧٢م، ص٨٧-٨٩. وسيشار له لاحقاً: فياض، تاريخ التربية عند الإمامية.

(٥٥) بدوي، عبد المجيد، **التاريخ السياسي للمذهب السني**، ط٢، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٨م، ص١٧٩ وسيشار له لاحقاً: بدوي، التاريخ السياسي.

أما الشخصية الثانية التي سارت على خطى نظام الملك هو نور الدين زنكي في بلاد الشام وبالتحديد في مدينة حلب، بعد أن ملكها سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م. فقد عرفت حلب بميلها إلى المذهب الشيعي "الإمامي" ابتداءً من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تقريباً، سبب ذلك أن القرن الرابع شهد وصول موجة كبيرة من البدو المهاجرين إلى أعالي الجزيرة الفراتية وشمال الشام من قبائل عامر بن صعصعة وهي كلاب وعقيل ونمير وعشير وخفاجة ومعظم هذه القبائل شيعية تدين بمذهب الاثنا عشرية[٥٦].

وبعد أن قام نور الدين ببعض الخطوات السياسية مثل منع الأذان بـ "حي على خير العمل" والتحذير من سب الصحابة، وإبعاد بعض رؤوس الشيعة[٥٧]، جاءت الخطوة الأهم وهي إنشاء المدارس.

فقد أنشأ مدرستين كبيرتين وهما "العصرونية" وهي للشافعية و"الحلاوية" وهي للحنفية[٥٨]. وعندما انتقل إلى دمشق ٥٤٩هـ فإنه أنشأ المدرسة النورية الكبرى عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بـ "النورية الصغرى" أما الشافعية فإنه أوقف لهم مدرستين أو ثلاث على خلاف بين المؤرخين[٥٩].

إذن فهو استفاد من الوقف (وقف المدارس) كمساعد له في سياسته القائمة على محاربة الحركات الباطنية، وهذا يظهر بشكل واضح من خلال قوله: "ما أردنا ببناء هذه المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين"[٦٠].

وعندما ظهر صلاح الدين كان العبء عليه أكبر والمهمة أكثر تعقيداً، ففي حين واجه نور الدين مدناً وقرى شيعية، فإن صلاح الدين كان عليه مواجهة دولة بكاملها قال عنها ابن الطوير أنها دولة قامت على أساس تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسي

---

(٥٦) بدوي، **التاريخ السياسي**، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٥٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٢٨٢.

(٥٨) للمزيد من الاطلاع على هاتين المدرستين وظروف إنشائهما ومدبريهما راجع: ابن العديم الحلبي الحنفي، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٣١ وما بعدها.

(٥٩) بدوي، **التاريخ السياسي**، ص٢١٠.

(٦٠) أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢٠٦. وسيشار له لاحقاً: أبو شامة، الروضتين.

في هذه الدولة كان انعكاساً لروح العقيدة الفاطمية نفسها، حتى أصبحت أصدق مثال للدولة الدينية العقائدية في الإسلام[٦١].

ودولة قامت على هذا الأساس ستكون الدعوة عماداً لها [٦٢]. وقد كانت القاهرة طوال العصر الفاطمي هي مركز الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي وتركزت هذه الدعوة في جامع القاهرة الذي عرف بالجامع الأزهر[٦٣].

وكان هناك حلم فاطمي بأن تنحو بغداد ودمشق منحى القاهرة مذهبياً[٦٤]، وبعد أن أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية وخطب للعباسيين، نجد أنه أكمل ما بدأ به نور الدين وزاد على ذلك، وسلك طريقه، وحذا حذوه واتبع آثاره في عمارة المساجد والخوانق والربط والزوايا والمدارس وأربى على نور الدين في جميع ذلك"[٦٥]، بمعنى أنه فاق نور الدين في مجال عمارة المدارس والخوانق والربط وغيرها.

وعندما ملك صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس[٦٦]، بمعنى أنه لم يوجد بها مدارس مثل تلك التي أسسها نظام الملك، إلا أنه وجدت مراكز علمية مثل الجامع الأزهر إذ جعل الفاطميون منه مؤسسة تعليمية تعنى بنشر مذهبهم منذ عام ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، وكذلك (دار العلم) التي أنشأها الحاكم بأمر الله للغرض ذاته سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م[٦٧].

([٦١]) ابن الطوير، المرتضى عبد السلام بن القيسلاني (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص٧٥-٧٦. وسيشار له لاحقاً: ابن الطوير، نزهة المقلتين.

([٦٢]) ابن الطوير، **نزهة المقلتين**، ص٧٦.

([٦٣]) السيد، أيمن فؤاد، **الدولة الفاطمية، تفسير جديد**، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٣٨٣.

([٦٤]) حسن، حسن إبراهيم، **الدولة الفاطمية**، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٧٧. وسيشار له لاحقاً: حسن، الدولة الفاطمية.

([٦٥]) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، قسم ٢، حققه: إحسان بن سعيد خلوصي وزهير الصمصام، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٢م، ص٨٥. وسيشار له لاحقاً: الصفدي، تحفة ذوي الألباب.

([٦٦]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ٥٠-٥١.

([٦٧]) بدوي، **التاريخ السياسي**، ص١٧٨.

وقد حول صلاح الدين الأزهر الذي كان قد أنشأ كمركز لنشر العقيدة الشيعية إلى جامعة سنية وأكمل مسيرة الملك الصالح نور الدين وأنشأ دور القرآن والحديث في أنحاء البلاد، ثم عين لها المدرسين فاستقبلت الكثير من طلاب العلم وأوقف عليها الأوقاف الخيرية للصرف عليها[٦٨].

ولن نسهب في الحديث عن المدارس في العهد الأيوبي، وإنما سنتطرق للأبرز.

فمن أبرز المدارس التي أنشأها صلاح الدين المدرسة الناصرية[٦٩]، وكذلك المدرسة القمحية التي أنشأها للمالكية[٧٠]. فصلاح الدين هو أول من أدخل المدارس في الديار المصرية. وكذلك بنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن علي رضي الله عنه بالقاهرة[٧١]، ومدرسة للحنفية في السيوفية[٧٢].

هذه هي أبرز المدارس التي أنشأها صلاح الدين في مصر، ولكن لم يكن الأمر حكراً عليه فقد سار على نهجه من تبعه من السلاطين حتى القضاة والأمراء ساهموا في ذلك.

فقد ساهم القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني[٧٣](ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م)، فأوقف في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م المدرسة الفاضلية بجوار داره في القاهرة لتدريس مذهبي الشافعية والمالكية، وخصها بمكتبة ضخمة[٧٤].

([٦٨]) الناصر، محمد حامد، **عهد نور الدين وصلاح الدين**، مكتبة الكوثر، الرياض، ١٩٩٨م، ص٣٦٠، وسيشار له لاحقاً: الناصر، عهد نور الدين.

([٦٩]) المدرسة الناصرية: بجوار الجامع العتيق في مصر، ثم عرفت بابن زين التجار أحد الأعيان الشافعية فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في أول المحرم سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م. وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية، وهي أول مدرسة عملت بديار مصر، ولما كملت وقف عليها الصاغة، وكانت بجوارها وقد خربت، ووقف عليها أيضاً قرية تُعرف بحارم. للمزيد راجع: المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص ٤٣٨. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٥١. العريني، **الأيوبيون**، ص٢٢٠.

([٧٠]) المدرسة القمحية: أنشأها للفقهاء والمالكية بجوار الجامع العتيق من مصر، وكان الشروع فيها سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، ووقف عليها قيسارية الوارقين وعلوها بمصر وضعية بالفيوم تعرف بالحنبوشية، ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة. المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص٤٣٩. العريني، **الأيوبيون**، ص٢٢١.

([٧١]) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٥٠.

([٧٢]) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص٤٤٣. هذه المدرسة أوقفها صلاح الدين على الحنفية وقد عثر المقريزي على كتاب وقفها كما يذكر، إذ أوقف على مستحقيها اثنين وثلاثين حانوتاً بخطة سويقة أمير الجيوش، وباب الفتوح وحارة برجوان.

([٧٣]) القاضي الفاضل أبو عبد الرحيم بن علي البيساني ولد سنة ٥٢٩هـ/١٣٤٠م، قيل إن مسودات رسائله لو جمعت لبلغت مئة مجلدة وقيل إن كتبه بلغت مئة ألف مجلد، له آثار جميلة وأفعال حميدة، وكان كثير

وبنى الملك الكامل[٧٥](ت ٦٣٥هـ/١٢٣٧م) المدرسة المنسوبة إليه "المدرسة الكاملية" في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ووقف عليها الربع الذي بجوارها على باب الخرنشف ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي[٧٦].

كذلك قام الملك الصالح إسماعيل[٧٧](ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م) بعمارة المدرستين بين القصرين من القاهرة، واحدة أنشأها سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، والأخرى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، ورتب فيهما دروساً للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة[٧٨].

وبالمحصلة فإن المؤرخين لاحظوا ازدياد عدد المدارس في مصر زمن الأيوبيين ففي الشارع المعروف بين القصرين كان على الجانين مدارس عدة في موضع القصر الفاطمي بالقاهرة، وبلغ عدد المدارس بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ/١٢٣٠م حوالي ثلاث عشرة مدرسة[٧٩].

هذا في مصر حيث أقيمت هذه المدارس لمقاومة بقايا النفوذ الشيعي الإسماعيلي وفي بلاد الشام أقيمت لنفس الغرض أيضاً، حيث كان الشيعة في بعض المدن الشامية يزيدون على السنة كما في دمشق مثلاً ، فهذا ابن جبير الرحالة وشاهد العيان يقول: "وللشيعة في هذه البلاد – دمشق– أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها، وقد عموا البلاد بمذاهبهم، وهم فرق شتى،

الأموال يدخله في السنة من فعله ورزقه خمسون ألف دينار (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م). راجع: الذهبي، **العبر**، ج٣، ص ١١٦.

(٧٤) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٤٤٤.

(٧٥) الملك الكامل محمد بن العادل (ولد سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م)، وتملك الديار المصرية تحت جناح والده عشرين سنة، وبعده عشرين سنة، وتملك دمشق قبل موته بشهرين، وتملك حران وآمد وله مواقف مشهورة، وكان صحيح الإسلام معظماً للسنة وأهلها، محباً لمجالس العلماء فيه عول وكرم وحياء وله هيبة شديدة. راجع: ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص١٧٢.

(٧٦) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص ٤٦٨.

(٧٧) الملك الصالح إسماعيل كان عاقلاً حازماً تتقلب به الأحوال أطواراً كثيرة، وكان الأشرف أوصى له بدمشق من بعده، فملكها شهوراً ثم انتزعها منه أخوه الكامل، ثم ملكها في يد الصالح أيوب خديعة ومكراً، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين، ثم استعادها منه الصالح أيوب عام الخوارزمية سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، واستقرت بيده بلدان بعلبك وبصرى ثم أخذت منه كما ذكرنا، ولم يبق له بلد يأوي إليه، فلجأ إلى المملكة الحلبية في جوار الناصر يوسف (ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م). راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٩١.

(٧٨) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص٤٦٥.

(٧٩) العريني، **الأيوبيون**، ص٢٢١.

فمنهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الإمامية، والزيدية، وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الإسماعيلية والنصيرية[٨٠].

كما حظيت بلاد الشام بوقف المزيد من المدارس لغرض آخر، وهو الإعداد لمحاربة الإفرنج المسيطرين على أجزاء من بلاد الشام منذ العام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وتحرير الأراضي التي كانت تخضع لسيطرتهم. وقد كان وقف المدارس ونشر المراكز العلمية المختلفة ودعمها لتكون قادرة على القيام بالدور المرسوم لها هي الوسيلة الموازية والمتزامنة مع الجهاد المسلح.

لقد شاعت وكثرت الأوقاف المخصصة للإنفاق على العلم وأهله في ذلك العهد، وهذا ما أكده ابن جبير، حيث أنه بيّن كثرة الأوقاف المرصدة للمراكز العلمية في بلاد الشام إذ يقول: "ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه"[٨١]. وبالتالي فقد عملوا على توجيه المقررات المدرسية في المراكز العلمية نحو خدمة هذا الغرض[٨٢].

وما دامت دمشق مركز الأيوبيين فإنها ستحظى بعناية أكبر من غيرها، من حيث وقف المدارس فهي كثيرة جداً، ولن نتحدث إلا عن أبرزها وأكثرها شهرة. فمن مدارسها المدرسة الغزالية بدمشق التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأوقف عليها في سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م قرية حزم على من يشتغل بها بالعلوم الشرعية أو بعلم يحتاج إليه الفقيه[٨٣].

والمدرسة العصرونية التي أوقفها الإمام شرف الدين عبد الله بن محمد بن أبي عصرون[٨٤] (ت ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م)، وقد أوقف عليها مزرعتان ببعلبك[٨٥].

---

(٨٠) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني (٦١٤هـ/١٢١٧م)، **رحلة ابن جبير**، دار الينابيع، عمان، ١٩٩١م، ص٢٢٣. وسيشار له لاحقاً: رحلة ابن جبير.

(٨١) **رحلة ابن جبير**، ص٢١٣.

(٨٢) المصري، جهاد سليمان، **التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، المفرق، ١٩٩٩م، ص٥٣. وسيشار له لاحقاً: المصري، التعليم في بلاد الشام.

(٨٣) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق: جعفر الحسني، ج١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٤١٣. وسيشار له لاحقاً: النعيمي، الدارس.

(٨٤) ابن أبي عصرون، شرف الدين أبو سعد ولد سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، تفقه بالوصل، وسمع بها من أبي الحسن بن طوق ثم رحل إلى بغداد، وقرأ القراءات على أبي عبد الله البارع ثم رجع إلى الموصل، فأقبل عليه نور الدين فقدم معه عندما افتتح دمشق وولي القضاء لصلاح الدين ثلاث وسبعين وله مصنفات كثيرة (ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م). راجع: ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص٢٨٣.

(٨٥) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٠٢.

والمدرسة الجهاركسية التي أوقفها الأمير فخر الدين جهاركس بن عبد الله[٨٦] الصلاحي وهو من أكابر أمراء صلاح الدين الأيوبي (ت ٦٠٨هـ/١٢١١م)[٨٧].

والمدرسة السرورية التي أوقفها مسرور الخصي الطواشي شمس الدين وقيل أنها منسوبة إلى الأمير فخر الدين مسرور الملكي الناصري العادلي واشترط كتاب وقفها أن يكون مدرساً عالماً بالخلاف بين المذاهب[٨٨].

حتى الملوك الذين لم يحكموا دمشق كانوا يوقفون فيها المدارس، فهذا الملك الغالب فتح الدين صاحب بارين[٨٩] قد أنشأ المدرسة الفتحية في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، وقد كان لها أوقافاً في
الديار المصرية[٩٠].

والمدرسة العزية بدمشق التي بناها عز الدين أيبك المعظمي[٩١] صاحب صرخد (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، وأوقف عليها أوقافاً[٩٢].

أما أعظم المدارس وأكبرها فهي المدرسة العادلية الكبرى، وهذا ما أجمعت عليه المصادر وأوقفها الملك المعظم عيسى[٩٣]، إذ أوقف عليها أوقافاً سخية ومجموعة قرى[٩٤].

---

(٨٦) الأمير فخر الدين الصلاحي، أعطاه العادل بانياس والشقيف فأقام هناك مدة وكان أحد أمراء صلاح الدين شهد الغزوات كلها، وتوفي في رجب ٦٠٨هـ/١٢١١م، ودفن بقاسيون التي وقف عليها قرية بوادي بردى تسمى الكفر وعشرين قيراطاً من جميع قرية بيت سوا. راجع: ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص٣٢.

(٨٧) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٤٩٦.

(٨٨) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٤٥٥.

(٨٩) بارين والعامة تقول بعرين مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، ٥ج، دار الفكر، بيروت، د.ت. ج١، ص٤٣٠. وسيشار له لاحقاً: ياقوت، معجم البلدان.

(٩٠) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق: يحيى زكريا عبارة، ج٢، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٢، ص٢١٥، وسيشار له لاحقاً: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة.

(٩١) عز الدين أيبك التركماني، الذي استدعاه الأمراء البحرية بعد مقتل المعظم غياث الدين توران شاه وملكوه عليهم، وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، ثم بعد أيام أقام المماليك لهم صبياً من بني أيوب هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر، وجعلوا المعز أتابكه، فكانت السكة والخطبة بينهما، والمعز هو من تزوجته شجرة الدر لاحقاً. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٩٠-١٩١.

(٩٢) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٥٧.

(٩٣) الملك المعظم، عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، ملك دمشق والشام، كان شجاعاً باسلاً اشتغل في الفقه على مذهب أبي حنيفة، على الحصيري مدرس النورية وفي اللغة والنحو على التاج الكندي، وكان محفوظه

هذا في دمشق حيث أنها المركز الرئيسي للأيوبيين أما الأطراف فقد نالها أيضاً نصيب من وقف المدارس، فهذه حماة[٩٥] التي شهدت حركة علمية نشطة في هذا العهد، إذ عمرت فيها العديد من المدارس والمراكز العلمية مثل المدرسة المنصورية التي بناها الملك المنصور ناصر الدين محمد[٩٦] (ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، صاحب حماة للإمام سيف الدين الآمدي[٩٧].

وفي حلب أيضاً كثر إنشاء المدارس في هذا العهد، فقد أنشأ الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي[٩٨](ت ٦١٣هـ/١٢١٦م) المدرستين الهروية التي أنشأها للشيخ أبو الحسن الهروي السائح سنة (٦١١هـ/١٢١٤م)، وكذلك المدرسة الظاهرية البرانية في نفس العام[٩٩]، ومدرسة الفردوس التي أنشأتها الملكة ضيفة[١٠٠] خاتون بنت الملك العادل سيف الدين

مفصل الزمخشري وكان يجيز من حفظه بثلاثين ديناراً، كان يحب العلماء ويكرمهم، ويجتهد في متابعة الخير، أوصى عند وفاته ألا يكفن إلا في البياض، (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م). ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٣٠-١٣١.

(٩٤) خربوطلي، شكران، **أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية في العصر الأيوبي**، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م، ص٨. وسيشار له لاحقاً: خربوطلي، أوقاف دمشق.

(٩٥) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات، يحيطها بها سور محكم وبظاهر السور حاصد كبير جداً فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٠.

(٩٦) ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق، كان شجاعاً محباً للعلماء وكان مصاحباً للأشرف موسى بن العادل يجيء إلى خدمته مراراً، وملك بعده ولده المسعود، وكان بخيلاً فاسقاً، فأخذه معه الكامل وحبسه بمصر، ثم أطلقه فأخذ أمواله وسار إلى التتار، فأخذت منه (ت٦١٧هـ/ ١٢٢٠م). ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٠٠.

(٩٧) المصري، **التعليم في بلاد الشام**، ص٨٤.

(٩٨) الملك الظاهر غازي، غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان من خيار الملوك وأسيدهم سيرة، ولكن كان فيه عسف ويعاقب على الذنب اليسير، أقام في الملك ثلاثين سنة، حضر كثيراً من الغزوات مع أبيه، بلغ أربعاً وأربعين سنة، وجعل الملك من بعده لولده العزيز غياث الدين محمد، وكان حينئذ ابن ثلاث سنين، (ت ٦١٣هـ/١٢١٦م). راجع : ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٧٧.

(٩٩) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص١٨٧.

(١٠٠) ضيفة خاتون بنت الملك العادل تزوجها الملك الظاهر سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، صاحب حلب، وأنجبت الملك العزيز سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، وتوفيت سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م. راجع: ابن أبي جرادة، عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ط٢، ج٢، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٧م، ص٦٣٢-٦٣٤.

وزوجة ملك حلب الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، وقد جعلتها واقفتها جامعاً وتربة ومدرسة ورباط[١٠١].

أما بيت المقدس فبعد تحريرها من أيدي الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م نجد أنه قد أنشئت فيها تسعة مدارس أبرزها المدرسة الصلاحية التي أسسها صلاح الدين للفقهاء الشافعية وفوض النظر فيها إلى بهاء الدين بن شداد[١٠٢]، وكذلك المدرسة الأفضلية التي وقفها الملك الأفضل[١٠٣](ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م) على فقهاء المالكية وأوقف حارة المغاربة على فقهائها وطلابها[١٠٤]، والمدرسة النحوية التي أنشأها الملك المعظم عيسى بن العادل (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، ومن تسميتها يتضح أنها كانت لتدريس علوم اللغة العربية[١٠٥]، والمدرسة الميمونية التي أوقفها فارس الدين أبو سعيد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م[١٠٦].

هذا غيض من فيض، فالمدارس ودور القرآن والحديث كثيرة العدد في العصر الأيوبي ولا يتسع المقام لذكرها، لكن ينبغي الإشارة إلى أن جميع مؤسسي هذه المدارس كانوا من السلاطين والوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء المقتدرين.

ومن ثم كانت لديهم الإمكانات الاقتصادية الوفيرة لوقف مختلف الأنواع من الأملاك والعقارات وغير ذلك من الأجزاء ومن جملة ما يوقف على هذه المدارس عدد كبير من القرى والضياع والنواحي والحمامات والفنادق والحوانيت والأملاك والأراضي[١٠٧].

وكان واقف هذه المدارس يقف عليها من الأوقاف ما يكفي للإنفاق على مدرسيها وطلبتها وباقي مستخدميها وعلى إصلاحها، وكان يحدد عدد من تدفع إليه هذه الأوقاف من

---

(١٠١) جحا، فريد، **المدارس الأثرية في مدينة حلب**، أوراق عدد ٥-٦، المعهد الإسباني للثقافة، ١٩٩٠م، مدريد، ص٧٣-٧٤، وسيشار له لاحقاً: جحا، المدارس الأثرية.

(١٠٢) الحنبلي، مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (ت٩٢٨هـ/١٥٢١م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج١، دار المحتسب، عمان، ١٩٧٣م، ص٣٩١. وسيشار له لاحقاً: الحنبلي، الأنس الجليل.

(١٠٣) الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م بالقاهرة، وسمع من عبدالله بن بري وجماعة وله شعر وترسل وجودة كتابة، تسلطن بدمشق ثم حارب أخاه العزيز صاحب مصر على الملك، ثم زال سلطانه، وتملك سميساط وأقام بها مدة، كان فيه عدل وحلم وكرم، توفي في صفر سنة ٦٢٢هـ. راجع: ابن العماد، **شذرات**، ج٥، ص١٠١.

(١٠٤) الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٤٦.

(١٠٥) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٤٠٣.

(١٠٦) **المصدر نفسه**، ج١، ص١٤٨.

(١٠٧) الحجي، حياة ناصر، **السلطان محمد قلاوون ونظام الوقف في عهده**، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٣م، ص١٠٧-١٠٨، وسيشار له لاحقاً: الحجي، السلطان محمد قلاوون.

المدرسين والطلبة وغيرهم، وربما وقف على طلبة العلم بالمدرسة من لم يبنها رغبةً في المساهمة في إذاعة العلم ونشر الثقافة واستجلاباً للدعاء وكان يتولى شؤون النظر في هذه الأوقاف ناظر يعينه منشئ المدرسة وقد يكون مدرسها[١٠٨].

لقد كانت الأوقاف بمثابة الرافد الذي طالما رفد المدارس والمراكز العلمية، وكلما كانت المدرسة ضخمة ببنائها وطلابها ومدرسيها فهذا يعني أن وقفها سيكون ضخماً أيضاً.

ونهض الوقف مساعداً للدولة وحمل عنها الكثير من أعبائها، فعملية التعليم كانت الرافد الأساسي لها هو الوقف، وإن حصل وتعطل الوقف فإن المدرسة ستتوقف تماماً. فالأوقاف ساعدت بشكل فعّال في إنشاء المدارس باعتبارها منشآت موقوفة وعلى استمرارها في أداء وظيفتها باستمرار الأوقاف الموقوفة عليها من أرض وعقار كانت في الغالب منشآت مدنية كالمقصورات والوكالات والرباع والخانات والحوانيت وغيرها من المسقفات التي كان يهتم بعمارتها ليستمر توارد ريعها للصرف منه على المنشآت الدينية الموقوفة واهتم أيضاً باستغلال فائض الريع في شراء وإنشاء مبانٍ أخرى تزيد الأوقاف وتنميتها[١٠٩].

فقد كانت الأوقاف العمود الفقري لذلك الهيكل التعليمي القائم على تلك المدارس الكثيرة وبدون ذلك الريع الثابت الشرعي الذي تدره الأوقاف لا يمكن لأي مدرسة أن تمارس وظائفها أو تحقق الهدف الذي تم تشييدها من أجله[١١٠].

لذا تميزت المنشآت العلمية في ذلك العهد بالاستقلال المالي، إذ كان الواقفون هم الذين يتولون أمورها المالية، بمعنى أن الدولة لم يكن لها جهات محددة مسؤولة عن تمويل الخدمات الاجتماعية والثقافية والدينية، وإنما كانت تعتمد في ذلك على موارد الزكاة والصدقات وأعمال البر الأخرى، فالأساس في توفير الإيرادات المالية الخاصة بالإنفاق على الخدمات الاجتماعية، والثقافية والدينية كان مصدره الأوقاف.

لقد هدف السلاطين الأيوبيين من وقف المدارس إلى عدة أهداف، أولها الهدف السياسي، فكما مرّ سابقاً فإن الأيوبيين أسقطوا الدولة الفاطمية الشيعية، وللقضاء على هذا المذهب الشيعي من جذوره، فإنهم كانوا يهدفون إلى سيادة المذهب السني وتوحيد أصحابه في جبهة واحدة، فاستفادوا من التعليم في تحقيق أهدافهم.

([١٠٨]) المرجع نفسه، ص١٠٩.

([١٠٩]) عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، **مجلة عالم المعرفة**، الكويت، ١٩٨٨م، ص٢٤٢. وسيشار له لاحقاً: عثمان، المدينة الإسلامية.

([١١٠]) الحجي، **السلطان قلاوون**، ص١٠٩.

كما هدفوا إلى إعداد جيل قوي متسلح بالعلم والإيمان لمحاربة العدو الفرنجي الذي اقتطع أجزاء واسعة من بلاد الشام وأسس ممالك اتخذت بيت المقدس والأماكن المقدسة فيه والدفاع عنها غطاءً شرعياً لذلك الاحتلال.

أما الهدف الثاني فهو الهدف الإداري ويقصد به تلبية حاجات الدولة من الموظفين المخلصين لسياستها ومذهبها فقد كانت مراكز التعليم آنذاك موجهة لخدمة الدولة ومصالحها، إذ فرض عليها نوع خاص من المعرفة، يهدف إلى إعداد الفرد لقبول سلطة الدولة وقوانينها، ولذلك كانت مراكز التعليم تمثل روافد هامة للدولة تمدها بقوى فتية مؤهلة.

وقد تمكنت الدولة الأيوبية من خلال تلك السياسة، من تخريج جيل من الأفراد المؤهلين الذين تحملوا أعباء الدولة الجديد. [١١١]

أما الهدف الثالث فهو الهدف العلمي، إذ عرف سلاطين وأمراء بني أيوب بميلهم الفطري إلى العلم إذ اشتغل معظمهم وساهم بفعالية في هذا الميدان، حتى إنه نبغ من بينهم أعلام في ميادين علمية شتى.

هذا إلى جانب تعهدهم الحركة العلمية بمختلف جوانبها بعظيم رعايتهم وعنايتهم فقد كانوا يحرصون على ملازمة العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء[١١٢].

([١١١]) المصري، **التعليم في بلاد الشام**، ص٥١. شميساني، حسن، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٦٧-٢٦٨. وسيشار له لاحقاً: شميساني، مدارس دمشق.

([١١٢]) المصري، **التعليم في بلاد الشام**، ص٥١.

الجانب الاجتماعي:

كان هناك تلمس حقيقي لمواطن الحاجة في المجتمع الإسلامي لتسد هذه الحاجة عن طريق الوقف، فالوقف من حيث بعده الاجتماعي يبرهن على الحس التراحمي الذي يمتلكه المسلم ويترجمه بشكل عملي في تفاعله مع هموم مجتمعه الكبير.

وعندما نتحدث عن المجتمع في العصر الأيوبي فإننا نجده يحظى بعناية السلاطين واهتمامهم ويظهر ذلك من خلال كثرة الأوقاف التي تخدم المجتمع بكل فئاته مثل الخوانق والأربطة والزوايا والبيمارستانات.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما السبب في الاهتمام الكبير بالمجتمع في هذا العصر، لعلنا لا نبتعد عن الصواب إن قلنا أن الحروب الصليبية هي السبب في ذلك، فقد بعثت هذه الحروب الرعب والفزع والتخريب والتدمير، وجلبت القحط أينما حلت سيما البلاد الشامية[١١٣]. هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد أنه منذ وفاة صلاح الدين وحتى نهاية الدولة الأيوبية، نجد المؤامرات والحروب والفتن التي لا حصر لها. فمنذ سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م السنة التي مات فيها صلاح الدين وحتى سنة ١٢٥٨هـ/ ٦٤٨م، وهي السنة التي هلك فيها آخر سلطان أيوبي بمصر، لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة طفحت بما وقع من المؤامرات والحروب بين أمراء الأسرة الأيوبية[١١٤].

وبالطبع كان العامة هم أكثر المتضررين من هذه الحروب، لذا فقد عملت الدولة الأيوبية على تحقيق أكبر قدر ممكن من الحاجات الاقتصادية من خلال نظام الوقف. ومن هنا جاءت إقامة الربط والخوانق والزوايا، وعملت الدولة على تأمين وسائل تنمية الزراعة والأوقاف الكثيرة عليها، كما ظهرت أشكال جديدة من الوقف سنبينها لاحقاً.

([١١٣]) المطوي، محمد العروسي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٦٩، وسيشار له لاحقاً: المطوي، الحروب الصليبية.

([١١٤]) العريني، **الأيوبيون**، ص١١٥.

الخوانق:

مفردها الخانقاه، والخوانق وهي مراكز دينية أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد. والخانقاه لفظة فارسية معناها البيت، وهي حديثة في الإسلام تعود إلى مطلع القرن الخامس الهجري، وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة والتصوف[١١٥].

وصلاح الدين هو صاحب الفضل في إنشاء أول خانقاه للمتصوفة في مصر، وذلك في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وهي خانقاه سعيد السعداء، إذ أوقف عليهم بستان الحبانية، بجوار بركة الفيل خارج القاهرة وقيسارية الشراب، وناحية دهمرو من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً في دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب للصوفية في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارهم فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر[١١٦].

وقد كانت الخوانق كثيرة العدد حيث يصفها ابن جبير بقوله عنها: "وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فهي كثيرة وهي قصور مزخرفة يطرد فيها الماء"[١١٧].

فالخانقاه هي وقف على المتصوفة بالدرجة الأولى. ولكن ما السبب في أن يبدي صلاح الدين ومن جاء بعده الاهتمام بالمتصوفة؟!

ظل التصوف في مصر ظاهرة فردية حتى بداية العصر الأيوبي، أي في أواخر القرن السادس للهجرة والثاني عشر للميلاد، إذ أن السلطان صلاح الدين الأيوبي لم يكتف بإنشاء المدارس السنية للقضاء على المذهب الشيعي، بل رأى أن يحارب المذهب الشيعي عن طريق التصوف السني. فكان أن أنشأ صلاح الدين أول بيت للصوفية في مصر وهو الذي عرف باسم خانقاه سعيد السعداء[١١٨].

كما أن صلاح الدين عندما أقدم على إلغاء الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١١٧م، كان يخشى عواقب هذه الخطوة، فحاول قدر الإمكان أن يكسب فئات الشعب إلى جانبه ومن هنا جاء التشجيع على التصوف حتى أصبحت الفترة التي تلت صلاح الدين أكثر الفترات التي تطورت ونضجت فيها الطرق الصوفية.

([١١٥]) رزق، عاصم محمد، **خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ج١، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢١. وسيشار له لاحقاً: رزق، خانقاوات الصوفية.

([١١٦]) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص ٥٧٠.

([١١٧]) **رحلة ابن جبير**، ص٢٣١.

([١١٨]) أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٠٤.

إضافة إلى ذلك فإن ظروف العصر أملت على الحكام الاهتمام بالمتصوفة، خاصة ما يتعلق منها بالوقوف في وجه المذهب الإسماعيلي، وإثارة الحماس في نفوس الناس، في وقت كانت الدولة تواجه الخطر الفرنجي.

إلا أن المؤرخ طقوش ينحى منحى آخر فيفسر اهتمام صلاح الدين بالمتصوفة بأنه من باب الزهد والتقشف والبساطة التي عمت كل مظهر من مظاهر حياته[١١٩].

وقد علت منزلة الصوفية في العهد الأيوبي، إذ وصفت الحياة داخل منازلهم بأنها تتميز بالترف والسعة وقد وصفهم ابن جبير بأنهم: "الملوك بهذه البلاد لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنات.. وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً"[١٢٠].

ولكن مع استمرارية غلات هذه الأوقاف ظهرت فئة من أفراد المجتمع استكانت وآثرت الدعة والبطالة وأصبحت عالة على المجتمع تعيش على صدقاته، نتيجة اعتماد الكثيرين على الأوقاف ولا سيما المقيمين منهم بالخانقاوات والربط والقباب[١٢١].

وقد وصفهم السبكي بأنهم: "أكلة بطلة سطلة لا شغل ولا مشغلة"، أي أنهم كثيرو الأكل وعاطلون عن العمل ومسطولون بالحشيشة التي انتشرت بينهم"[١٢٢].

وقد كثرت الخوانق في العصر الأيوبي، ففي دمشق فقد ذكر ابن شداد المعاصر لنهاية الفترة الأيوبية أن عدد الخوانق فيها بلغ تسع عشرة خانقاهاً. ومن أمثلتها الخانقاه الناصرية لمنسوبة لصلاح الدين[١٢٣]. والخانقاه المجاهدية المنسوبة إلى الأمير مجاهد الدين إبراهيم أخ الملك الصالح نجم الدين أيوب[١٢٤].

([١١٩]) طقوش، محمد سهيل، **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م، ص٢١٥، وسيشار له لاحقاً: طقوش، تاريخ الأيوبيين.

([١٢٠]) **رحلة ابن جبير**، ص٢٣١.

([١٢١]) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٢٢.

([١٢٢]) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، **معيد النعم ومبيد النقم**، ج٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م، ص١١٥. وسيشار له لاحقاً: السبكي، معيد النعم.

([١٢٣]) بدران، عبد القادر (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، ط٢، المجمع العربي للتأليف والدراسات والترجمة، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٨٨. وسيشار له لاحقاً: بدران، منادمة الأطلال.

([١٢٤]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٨٥، راجع أيضاً: فليفل، محمد الحاج محمود، **مدينة دمشق في العصر الأيوبي ٥٧٠-٦٥٦هـ/١١٧٢-١٢٥٨م**، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م، ص٢٠٤-٢٠٥. وسيشار له لاحقا: فليفل، مدينة دمشق في العصر الأيوبي.

الربـط والزوايا:

الربط مفردها رباط وهي من المرابطة أي ملازمة ثغر العدو، ثم تطورت هذه التسمية من مفهومها العسكري المرتبط بالجهاد إلى ما تعنيه كلمتا الخانقاه والزواية لرجال الصوفية، والزاوية أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى وتطورت الزاوية حيث ارتبطت بالصوفية.

والخوانق والربط والزوايا هي مؤسسات دينية ارتبط نشوؤها بالزهد والإعراض عن الدنيا، إلا أن هذه المؤسسات تطورت مع تطور فكرة التصوف، وصبغت بصبغة اجتماعية وثقافية، أما الصوفية فهم المعرضون عن الدنيا والمنشغلون بأغلب الأوقات بالعبادة[١٢٥].

وما لحظناه أن الخوانق والربط والزوايا كلها مؤسسات تزامنت مع فكرة التصوف وسايرتها، وأخذت صفة الزهد والانقطاع للعبادة، فكثر الواقفون عليها، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها.

وقد لعبت هذه المؤسسات "الخوانق والربط والزوايا" دوراً مهماً في المجتمع الدمشقي، وكانت ذات تأثير كبير عليه سواء كان هذا التأثير إيجابياً أو سلبياً[١٢٦].

وسنضرب أمثلة على أبرز الربط والزوايا التي ظهرت في العصر الأيوبي، فمنها رباط التكريتي الذي بناه وجيه الدين محمد بن علي سويد[١٢٧](ت٦٧٠هـ/١٢٧١م)، ويذكر بدران أنه كان ذو حظوة عند الملوك وصاحب أموال كثيرة[١٢٨].

كما أنشأ شرف الدين علي الإسكافي الدمشقي رباطاً بسفح قاسيون وأوقف عليه وقفاً واشترط أن يقيم فيه عشرة شيوخ عمر كل واحد منهم فوق الخمسين سنة، ولكل واحد منهم في الشهر عشرة دراهم[١٢٩].

ومن الزوايا الزاوية الأرموية التي أنشأها عبدالله بن يونس الأرموي[١٣٠](ت ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م)[١٣١]، والزاوية الدينورية التي أنشأها عمر بن عبدالملك الدينوري[١٣٢](ت٦٢٩هـ/ ١٢٣٠م)[١٣٣].

([١٢٥]) فليفل، **مدينة دمشق في العصر الأيوبي**، ص٢٠٤.

([١٢٦]) المرجع نفسه، ص٢٠٥.

([١٢٧]) الوجيه بن سويد التكريتي، كان تاجراً واسع الأموال والمتاجر، عظيم الحرمة، مبسوط اليد في الدولة الناصرية والظاهرية، توفي عن نيف وستين سنة، ولم يروِ شيئاً في ٦٧٠هـ. راجع: **شذرات الذهب**، ج٥، ص٣٣٣.

([١٢٨]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٩٦.

([١٢٩]) فليفل، **مدينة دمشق في العصر الأيوبي**، ص٢٠٥.

وكذلك الزاوية العمادية التي أنشأها العماد أحمد بن إبراهيم المقدسي الصالحي[١٣٤](ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، الذي ازدادت عدد أتباعه من المتصوفة[١٣٥].

البيمارستانات:

مفردها بيمارستان وهو لفظ فارسي مركب من "بيمار" أي مريض، و"ستان" أي محل أو دار المرضى[١٣٦].

أما بناء البيمارستانات فكان سمة بارزة في تاريخ الحضارة الإسلامية في القرون الماضية، فقد أسهمت إسهاماً واسعاً في توفير الرعاية الصحية والعناية الطيبة لمن يحتاجها.

وكان الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ/٧١٤م) أول من أنشأ البيمارستانات في الإسلام، وكان ذلك سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م فجعل في المارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق[١٣٧]. ثم تتابع إنشاء البيمارستانات في المدن الإسلامية وتولى غالباً إنشاؤها الخلفاء والسلاطين والأمراء وأشرفوا على بنائها وأوقفوا عليها لتستمر في أداء وظائفها.

وفي العصر الأيوبي نجد أن وقف البيمارستانات يقتصر على السلاطين والأمراء وذلك نظراً لتكاليف الإنشاء الضخمة والمصاريف الكثيرة التي لا يستطيع القيام بأعبائها إلا السلاطين والأمراء.

فعندما استرد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس ٥٨٣هـ/١١٨٧م من الصليبيين نجده يحدد البيمارستان الذي أنشأه الفاطميون في بيت المقدس إشارة لما وصفه الرحالة ناصر

---

(١٣٠) عبد الله بن يونس، الزاهد، صاحب الزاوية بجبل قاسيون، كان صالحاً متواضعاً، مطرحاً للتكلف يمشي وحده ويشتري الحاجات وله أحوال ومجاهدات، وقدم في الفقر. راجع: الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٢١١.

(١٣١) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٩٩.

(١٣٢) عمر بن عبد الملك الدينوري الزاهد نزيل قاسيون كان صاحب أحوال ومجاهدات وأتباع، وهو والد جمال الدين خطيب كفر بطنا (ت٦٢٩هـ). راجع: الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٢٠٤.

(١٣٣) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٣٠٤.

(١٣٤) العماد بن عبد الواحد المقدسي الصالحي ولد سنة (٦٠٨هـ/١٢٢١م) سمع من أبي القسم الحرستاني وجماعة، واشتغل وتفقه ثم تمفقر وتجرد وصار له أتباع ومريدون. راجع: ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص٤٠٣.

(١٣٥) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٣٠٨.

(١٣٦) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص ١٥٥.

(١٣٧) المقريزي، **خطط**، ج٢، ص٤٠٥.

خسرو[١٣٨]، فوقف عليه مواضع ووضع فيه ما يحتاج من الأدوية والعقاقير وفوض النظر والقضاء إلى القاضي بهاء الدين بن شداد[١٣٩].

كما أنه أنشأ بيمارستاناً آخر في عكا سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ووقف عليه أوقافاً دارة وولي نظر ذلك لقاضيها ابن الشيخ أبي النجيب[١٤٠].

كما أسس صلاح الدين في مصر البيمارستان الناصري، وقد كان قبل ذلك قاعةً بناها العزيز بالله الفاطمي، فأمر صلاح الدين بجعلها بيمارستاناً للمرضى والضعفاء وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانية مشاهرةً مبلغها مائتا دينار وغلات جهتها الفيوم، واستخدم له أطباء وكحالين وجرائحيين وشارفاً وعاملاً وخداماً[١٤١].

وهو البيمارستان الذي وصفه ابن جبير عند زيارته لمدينة القاهرة سنة ٥٨٧هـ/١١٨٢م قائلاً: "ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وقصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً"[١٤٢].

وأوقف صلاح الدين أيضاً بيمارستاناً آخر في مدينة الإسكندرية عندما سار إليها سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م[١٤٣]، وهذا الأمير أبو الحسن بن أبي الفوارس القيمري[١٤٤] (ت ٦٥٣هـ/١٢٥٥م) يوقف المارستان الصالحي أو القيمري نسبةً إليه بسفح الصالحية حتى أن ابن كثير يصف هذا الوقف من أكبر حسناته[١٤٥]، ويبدو أنه كان ضخماً ويظهر ذلك مما أوقف عليه من قرى عديدة

([١٣٨]) ناصر خسرو، **سفرنامة**، ص١٧.

([١٣٩]) الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج١، ص٣٩١.

([١٤٠]) عيسى، أحمد، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٣٣. وسيشار له لاحقاً: عيسى، تاريخ البيمارستانات.

([١٤١]) أحمد عيسى، **تاريخ البيمارستانات**، ص٧٦-٧٧.

([١٤٢]) **رحلة ابن جبير**، ص٢٤.

([١٤٣]) المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص١١٦.

([١٤٤]) سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس القيمري صاحب المارستان بصالحية دمشق، كان من جملة الأمراء وأبطالهم المذكورين وصلحائهم المشهورين، وهو ابن أخت صاحب قيمر، توفي بنابلس سنة ٦٥٣هـ، ونقل فدفن بقبته التي بقرب مارستانه بالصالحية. راجع: ابن العماد، **شذرات**، ج٥، ص٢٦١.

([١٤٥]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٢٤.

وخانات وطواحين وحوانيت[١٤٦]، كما أنشئ بيمارستاناً في مدينة الموصل أنشأه مجاهد الدين قايماز[١٤٧](ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م)[١٤٨].

ونلاحظ أنه برز في هذا العصر الاهتمام الواضح بالأيتام بحثاً عن الأجر والمثوبة وطلباً لمرافقة النبي ﷺ ففي الحديث أن الرسولﷺ قال: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما"[١٤٩].

وقد أولى الأيوبيون جلّ رعايتهم بالأيتام، فأقاموا لهم المكاتب لتعليمهم والإنفاق عليهم، وأوقفوا لهم ما يكفل استمرارية أداء واجبها، وقد أصبحت هذه العادة "الوقف للأيتام" عادةً جرى عليها السلاطين والأمراء وأعيان الدولة والأغنياء والمحسنون.

ويحدثنا ابن جبير عن ذلك إذ يقول: "إن من مآثر صلاح الدين الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عزّ وجلّ، يعلّمون فيها أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجري عليهم الجراية الكافية لهم[١٥٠].

كما ذكر أنه شاهد في دمشق محضرة كبيرة للأيتام من الصبيان لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم[١٥١].

وهذا زين الدين علي كجك والد مظفر الدين كوكبوري[١٥٢] قد بنى داراً للأيتام واللقطاء، وسار على خطاه ابنه مظفر الدين الذي بنى داراً للأطفال اللقطاء ورتب فيهم جماعة من المراضع[١٥٣].

---

(١٤٦) أحمد عيسى، **تاريخ البيمارستانات**، ص٢٤٠.

(١٤٧) مجاهد الدين قايماز الرومي نائب الموصل المستولي على مملكتها أيام ابن أستاذه نور الدين أرسلان، وكان عاقلاً ذكياً فقيهاً حنفياً وقيل شافعياً يحفظ شيئاً كثيراً من التواريخ، وقد ابتنى عدة جوامع ومدارس وربط وخانات وله صدقات كثيرة دارة (ت٥٩٥هـ). راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٢٣-٢٤.

(١٤٨) البرهاوي، **خدمات الوقف**، ص١٦٩.

(١٤٩) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، **صحيح البخاري**، ج١، تحقيق: جواد عفانة، ط١، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ٢٠٠٣م، ص٤٨٤. وسيشار له لاحقاً: البخاري، صحيح البخاري.

(١٥٠) **رحلة ابن جبير**، ص٢٥.

(١٥١) **المصدر نفسه**، ص٢٢٠.

(١٥٢) مظفر الدين صاحب إربل الملك المعظم أبو سعيد كوكبوري ابن الأمير زين الدين علي بن كوجك التركماني، ولي مظفر الدين مملكة إربل بعد موت أبيه سنة ٥٦٣هـ، وله أربع عشرة سنة ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وتمكن منه وتزوج بأخته ربيعة واقفة المدرسة الصاحبة وشهد معه عدة مواقف أبان فيها عن شجاعة وإقدام، وكان حينئذ على إمرة حران والرها، كان من أدين الملوك وأجودهم، له مدرستان وأربع خوانق، ودار للأرامل ودار للأيتام ودار للقطاء، (ت ٦٣٠هـ). راجع: الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٢٠٨.

(١٥٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص١١٦.

كما برز الدور الواضح للأوقاف في العهد الأيوبي بتحقيق الرعاية الاجتماعية الشاملة للغرباء والعجزة بشكل عام، فما من مدرسة ينشؤها الواقفون إلا ويوضع بجوارها بيت خاص للطلاب المغتربين ويجري عليهم فيما يحتاجونه من غذاء[١٥٤].

فقد أبدى ابن جبير إعجاباً شديداً بما لمسه في بلاد المشرق الإسلامي من عناية بالغرباء ولا سيما إذا كانوا من طلاب العلم والمشتغلين به، فقال: إن هذه ملموسة على نطاق واسع في بلاد المشرق عامة، وفي مصر خاصة، وأن هؤلاء الغرباء كانوا موضع رعاية الحكام الذين وقفوا الأوقاف الواسعة على المرافق التي خصصوها لهم.

كما أنه يصف هذه الأماكن وما يقدم لهم فيها فيقول: "إن الوافد من الأقطار النائية يجد مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه.. واتسعت عناية السلطان بهؤلاء الغرباء حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها ... ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم... ولقد عين لهم السلطان خبزتين لكل إنسان في كل يوم؛ حاشا ما عينه من زكاة العيد لهم"[١٥٥].

ومن التطورات الجديدة في الوقف في العصر الأيوبي، الوقف على الأسرى، وهذا النوع من الوقف ليس وليد العصر الأيوبي، فقد برز في منطقة الثغور في بعض الفترات العباسية، ولكنه برز أكثر في هذا العصر بسبب الحركة الجهادية النشطة ضد الحملات الصليبية التي بدأت منذ عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م واحتلت بيت المقدس والمناطق المجاورة. ومن الأمور التي أدت إلى زيادة الاهتمام بوقف الأسرى تلك المحاولات الخطيرة التي جرت لتنصير الأطفال المسلمين أثناء الحملة الهنغارية على بلاد الشام سنة ٦٠٤هـ/١٢١٧م[١٥٦]، وكانت تقع أعداد كبيرة من الأسرى عند كلا الطرفين، وكانت عملية التحرير تتم إما بالتبادل أو بالشراء. وإن من لديهم الإمكانات المادية يساهمون في ذلك. فعلى سبيل المثال نجد أن القاضي كمال الدين الشهرزوي[١٥٧](ت ٥٧٢هـ/١١٧٦م) أوقف قرية الهامة بوادي نهر بردى من ضواحي دمشق على الأسرى وعرف أيضاً عن مسرور أحد خواص السلطان الذي اشتهر كسيده في أعمال الخير أنه أوقف على الأسرى وكان هذا الوقف خاناً مكوناً من ٩٩ بيتاً ويحتوي على مسجد جامع[١٥٨].

---

(١٥٤) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٥٣.

(١٥٥) **رحلة ابن جبير**، ص١٦.

(١٥٦) حسين، حسين عبد الوهاب، **الوقف ودوره في فداء الأسرى في بلاد الشام ومصر في عصر الحروب الصليبية**، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ٢٠٠١م، ص٥٢١. وسيشار له لاحقاً: حسين، الوقف ودوره في فداء الأسرى.

(١٥٧) أبو الفضل الشهرزوي، كمال الدين الموصلي الشافعي، ولد سنة ٤٩١هـ، وتفقه ببغداد على أسعد الميهني، وولي قضاء بلده لأتابك زنكي، ثم وفد على نور الدين فبالغ في تبجيله فولاه قضاء دمشق سنة ٥٥٥هـ، وتوفي ٥٧٢هـ. راجع: ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص٢٤٣.

(١٥٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص٤٤١.

كما عرف عن القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) الذي كان اليد اليمنى لصلاح الدين الأيوبي، أن كان له أوقاف على تحرير الأسرى بحكم اطلاعه على معاناة الأسرى، خاصة النساء والأطفال والشيوخ، وبدافع الإيمان قربة لله تعالى[١٥٩].

ومن التطورات الجديدة أيضاً وقف البيوت لسكنى الضعفاء، فقد أوقفت عتيقة الملك العادل الأيوبي أرغوان الحافظية دارها على خدمها[١٦٠].

وأنشأ مظفر الدين كوكبوري داراً للضيافة وأجرى على ساكنيه الجرايات والكسوة فضلاً عن المأكل[١٦١].

ويذكر عن مجاهد الدين قايماز أنه أوقف وقفاً في الموصل على خبز الصدقات[١٦٢].

إذاً لاحظناً أوقاف جيدة برزت في نظام الوقف في العصر الأيوبي، وأصبح الوقف يشمل معظم مناحي الحياة، وبالإضافة إلى ما سبق من عوامل ازدهار الوقف في هذا العصر، نجد أن النشاط التجاري الواسع على عصر الحروب الصليبية كان عاملاً آخر، فمن المعروف أن حركة التجارة قد نشطت بشكل لم يسبق له مثيل حتى أن الرحالة المغربي ابن جبير يبدي استغرابه من هذا الشيء[١٦٣].

إن هذا النشاط التجاري الواسع أدى إلى ظهور طبقة من أهل اليسار والنعمة كان لها أثرها في المجتمع فضلاً عن أن توافر الأموال نتيجة الاشتغال بالتجارة ساعد على كثرة الأوقاف التي أوقفها هؤلاء على وجوه البر المتعددة الأشكال[١٦٤].

وهناك سبب آخر ذكره ابن خلدون عند إشارته لانتشار العلم في أيام صلاح الدين، فقد كان بعض الولاة يحبسون على ذريتهم الأوقاف خوفاً من تعدي ولاة الأمر بعدهم عليهم، فهم يخافون ممن يأتي بعدهم، فاستكثروا من بناء المدارس، والربط ووقفوا عليها الأوقاف يجعلون فيها شركاً لأولادهم[١٦٥].

---

(١٥٩) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٢٤.

(١٦٠) المصدر نفسه، ج١٣، ص١٨٠.

(١٦١) حسين، **الوقف ودوره في فداء الأسرى**، ص٥٢١.

(١٦٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص٨٣.

(١٦٣) **رحلة ابن جبير**، ص٢٤٥.

(١٦٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح، **المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ط١، الجامعة الأردنية، ١٩٧٤م، ص٢٢٧، وسيشار له لاحقاً: عاشور، المجتمع الإسلامي.

(١٦٥) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص ٥٩٤.

الفصل الثالث

النساء الواقفات في دمشق في العصر الأيوبـي

الفصل الثالث
النساء الواقفات في دمشق في العصر الأيوبي

قبل الحديث عن الواقفات لا بد من توضيح أنه بعد البحث في مصادر العصر الأيوبي، كانت الحصيلة إثنتان وعشرون واقفة (٢٢) منذ سبعينات القرن السادس الهجري وحتى عام ٦٥٨هـ/١١٧٤م وهو نهاية حكم الأيوبيين.

ووجدنا أن هناك تفاوت في المعطيات الموجودة بين واحدة وأخرى فمن الواقفات من أسهبت المصادر في الحديث عنها، ومنهن من اكتفت بذكر الاسم فقط فعمدنا في هذه الحالة بالترجمة لزوج أو والدة الواقفة.

وقمنا باستعراض الواقفات حسب التسلسل التاريخي لسنة الوفاة، أما النساء اللواتي لم تعرف تاريخ وفاتهن فقد اعتمدنا تاريخ إنشاء الوقف.

ويلاحظ على الواقفات أن معظمهن ينتمين إلى الطبقة الحاكمة بينما تنتمي الأقلية الباقية إلى طبقة العلماء.

١- الخاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر

وهي الخاتون[١٦٦]العصمية، عصمة الدين ابنة معين الدين نائب الشام، وأتابك عسكرها، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين زنكي[١٦٧]، ذلك أنه في سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م سار نور الدين زنكي صاحب حلب، فاستعاد أرتاح[١٦٨]من الفرنج وأخذها عنوة وأخذ ثلاثة حصون صغار لهم، فخافته الفرنج ورعبت منه وتزوج بابنة نائب الشام معين الدين أنر وأرسلت إليه إلى حلب[١٦٩].

([١٦٦]) الخاتون: لفظ تركي معناه السيدة. دخل العالم الإسلامي عن طريق الأتراك للتعبير عن الحريم وهو يقوم مقام لقب السيدة للإشارة إلى الجليلات من النساء خصوصاً أميرات الأسرة الحاكمة. الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٦٤. وسيشار له لاحقاً: الباشا، الألقاب الإسلامية.

([١٦٧]) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص١٥٧.

([١٦٨]) أرتاح اسم حصن منيع كان في العواصم من أعمال حلب، ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، ص١٤٠.

([١٦٩]) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ط١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م، حوادث ٥٤١-٥٥٠هـ، ص١٠-١١، وسيشار له لاحقاً: الذهبي، تاريخ الإسلام.

فلما توفي وخلفه صلاح الدين الأيوبي بالشام في حفظ البلاد ونصرة الإسلام تزوج بها في سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م فأقامت عنده مدة في القلعة محترمة مكرمة معظمة، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومعه جماعة من العدول. وبات السلطان عندها تلك الليلة والتي بعدها، ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها[١٧٠]. وقد كان زواج السلطان منها مبادلةً إذ زوّج أخته ربيعة خاتون بشقيق عصمة الدين "سعد الدين مسعود[١٧١]. ويصف أبو شامة الخاتون عصمة الدين بالعفة والعصمة، فهي أعف النساء وأعصمهن وأجلهن في الصيانة وأحرمهن، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ولها أمر نافذ ومعروف وصدقات ورواتب للفقراء وإدرارات[١٧٢].

ويبدو أنها كانت الزوجة الصالحة صاحبة الرأي السديد. فقد كان السلطان صلاح الدين يصدر عن رأيها[١٧٣]، كما كان شديد التعلق بها، وعند وفاتها سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م كان السلطان حينئذ بحرّان[١٧٤] في بحر المرض وبحراته وعنف الألم وعنفوانه. وكانت حاشية السلطان تدرك محبته لها وشدة تعلقه بها، فلم يخبروه بوفاتها خوفاً من تزايد علته وتوقد غلته[١٧٥]. وهذا ما تجمع عليه المصادر كلها بأن السلطان صلاح الدين في هذا العام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م قد مرض بحرّان مدة قصيرة واشتد مرضه، وتناثر شعر رأسه ولحيته وأرجفوا موته ثم عوفي[١٧٦].

وكان يستدعي كل يوم درجاً ويكتب إليها كتاباً طويلاً، ويلقى على ضعفه من تعب الكتابة والفكر حملاً ثقيلاً[١٧٧].

---

(١٧٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٣٣٩.

(١٧١) شميساني، **مدارس دمشق**، ص٧٧.

(١٧٢) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص١٥٧.

(١٧٣) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **العبر في خبر من غبر**، ط١، تحقيق: محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م، ص٨٣، وسيشار له لاحقاً: الذهبي، العبر.

(١٧٤) حران: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مصر بينها وبين الرها وبين الرقة يومان، هي على طريق الموصل والشام. ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص ٢٣٥.

(١٧٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، حوادث ٥٨١-٥٩٠، ص٧.

(١٧٦) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٠٦. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص٥١٧. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٣١٢.

(١٧٧) الذهبي، **تاريخ الإسلام وحوادث** ٥٨١-٥٩٠ هـ، ص٧. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٣١٦.

لكنه عوفي بعد ذلك وأبلغوه بخبرها عندما توفي ناصر الدين محمد بن شيركوه ابن عمه فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف ومات بعدها أخوها سعد الدين مسعود في جمادى الآخرة من هذه السنة من جرح أصابه في حصار ميافارقين[١٧٨].[١٧٩] وقد كانت رحمها الله نموذجاً للمرأة الصالحة الخيرة، فمن عادتها كثرة القيام، ولكنها ذات ليلة نامت عن وردها، فأصبحت وهي غضبى فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت له نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبخانات في القلعة وقت السحر. ليوقظ النائم ذلك كقيام الليل ورتب للضارب جراية وجامكية[١٨٠].[١٨١] فأصبحت هذه عادة استمرت حتى نهاية عصر المماليك[١٨٢].

وقد دفنت بتربتها التي هي تجاه قبة الجركسية في سفح جبل قاسيون[١٨٣]، ويذكر أنها ماتت ولم تعقب[١٨٤].

وكما مر سابقاً بأن عصمة الدين خاتون كان لها صدقات كثيرة وبر عظيم، وأيضاً أوقاف كثيرة على معتقيها وعوارفها وأقاربها[١٨٥]، ولكن لم يصلنا من أوقافها سوى مدرستها التي بنتها في دمشق وقد سميت بالمدرسة الخاتونية الجوانية، وكذلك أوقفت الخانقاه الخاتونية.

وأما المدرسة الخاتونية الجوانية ٥٧٠هـ/١١٧٤م، فقد كانت تدرس المذهب الحنفي، وكانت داخل مدينة دمشق بمحلة حجر الذهب[١٨٦]، قريباً من البيمارستان [١٨٧] النوري[١٨٨] قرب الحمام

([١٧٨]) ميافا رقين: أشهر مدينة بديار بكر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص ٢٣٥.

([١٧٩]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٠٦.

([١٨٠]) جامكية: الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف فهي من ناحية أجر من ناحية منحة. البقلي، محمد قنديل، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٥٩.

([١٨١]) ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) **الكواكب الدرية في السيدة النورية**، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ص٥٥. وسيشار له لاحقاً: ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية.

([١٨٢]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٨٦.

([١٨٣]) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٨٣.

([١٨٤]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٦٩.

([١٨٥]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص٣٣٩.

([١٨٦]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٠٧.

([١٨٧]) البيمارستان النوري، شيده نور الدين زنكي في العهد الأتابكي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، لايزال بناؤه قائماً في محلة الحريقة التي عرفت في السابق باسم محلة "سيدي عامود" في مطلع القرن العشرين وظف مدرسة للبنات، ثم أصبح متحفاً للطب والعلوم عند العرب سنة ١٩٧٨م. **معجم دمشق**، ج١، ص٥٣.

([١٨٨]) العلبي، **خطط دمشق**، ص ١٨٦.

السركسي، وقد خربت هذه المدرسة وبنى فخر الدين القدسي المالكي بيتاً ونسيت تماماً[١٨٩].

وأما الخانقاه الخاتونية فقد كانت في ظاهر باب النصر[١٩٠] المعروف بدار السعادة أول الشرف القبلي على نهر بانياس شرقي جامع تنكز وملاصقة له. وبابها يفتح للقبلة[١٩١]، ولا أثر للخانقاه اليوم بعد هدم جامع تنكز من أربعين عاماً وهدمت معه الخانقاه[١٩٢].

وفيما يتعلق بالجامع الجديد، فقد قد كان أصلاً تربة للسيدة عصمة الدين خاتون أنشأتها سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م ثم وسعتها وعملت معها جامعاً[١٩٣].

ويعرف الآن بالجامع الجديد وسعه التاجر سليمان بن حسن العقيدي، وذلك بولاية ابن التدمري سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، ثم أنشأ الخواجا أبو بكر بن العيني تربة شمالها يسلك لها من بابين أحدهما من الجامع وتجاهها إيوان بمحراب مضاف إلى الجامع ثم أوقف عليها ولده شيخ الإسلام زين الدين عبد الرحمن بن العيني أوقافاً[١٩٤].

وفي سنة ٩٧٤هـ/ ١١٥٦م ألهم تعالى عبده الصالح محمد بن محمد. فوسع الجامع[١٩٥] من جهة الغرب بقدر مرتين، فصار واسعاً تصلى فيه الصلوات، وجعل في هذا الذي جدده محراباً،

وأنفق عليه من ماله وساعده بعض أهل الخير[١٩٦].

---

(١٨٩) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٠٧ حاشية .

(١٩٠) باب النصر كان من أبواب دمشق في الجهة الغربية للسور عند مدخل سوق الحميدية مختلف في إنشائه بين نور الدين الشهيد والملك الناصر محمد بن قلاوون المملوكي، درس سنة ١٨٦٤هـ/ ١٨٦٥م من العهد العثماني عند إقامة سوق الحميدية، أسماؤه الأخرى: باب الجنان، باب الجنان المسدود، باب دار السعادة، باب السرايا. راجع: الشهابي، قتيبة، **معجم دمشق التاريخي**، ج١، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٩م، ص٢٩. وسيشار له لاحقاً: الشهابي، معجم دمشق.

(١٩١) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١٤٤. كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص١٣٠.

(١٩٢) العلبي، **خطط دمشق**، ص٣٩٦.

(١٩٣) ابن المَبْرد، يوسف بن عبد الهادي يوسف بن أبي عبد الله الحسن بن شهاب بن عبد الهادي (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، تحقيق: محمد أسعد طلس، بيروت، ١٩٤٣م، ص٢٠٥. وسيشار إليه لاحقاً: ابن عبد الهادي، المساجد.

(١٩٤) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص٤٤٣.

(١٩٥) وقد وصف لنا هذا الجامع يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المَبْرد (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، حيث يقول: "وهو اليوم مؤلف من جدارين حوله غرف جعلت مدرسة ابتدائية، ومصلى في زاويته الشمالية الشرقية، منارة حجرية جميلة إلى جانب بابه باب المصلى وليس في المصلى شيء يستحق الذكر. فالمحراب والمنبر عاديان، أما الضريحان اللذان ذكرهما النعيمي، فلا يزالان موجودين في غرب المصلى، ومن فوقهما قبة آخذه في الانهدام. ابن عبد الهادي، **المساجد**، ص٢٠٥.

٢- الست جوزة

زوجة الطبيب أسعد بن المطران المتوفى سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م وقد كان نصرانياً فأسلم وكان غزير المروءة حسن الأخلاق متعصباً للناس عند السلطان وكان مناصراً أهل البيت، وذكر أنه كان يعود المرضى من الفقراء ويحمل إليهم الأشربة من عنده والأدوية حتى أجرة الحمام[١٩٧]، وقد شكره على طبه العام والخاص[١٩٨]. وكان مليح الصورة، وقد مات بدمشق ودفن بقاسيون على قارعة الطريق عند دار زوجته. وكان اسم زوجته "جوزة" وهي التي بنت إلى جانب تربته مسجداً[١٩٩] يعرف بدار جوزة[٢٠٠].

٣- الست عذراء

وهي عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب بن شادي الخاتون الجليلة، أخت فروخشاه، وصاحبة المدرسة المشهورة، توفيت في أول عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م[٢٠١]. ودفنت بتربتها بمدرستها، وهي والدة الأمير سعد الدين مسعود بن الحاجب مبارك صاحب صفد المتوفى سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، ووالدة أخيه بدر الدين مودود[٢٠٢]، وكانا أميرين كبيرين لهما مواقف مشهورة مع صلاح الدين[٢٠٣].

---

(١٩٦) العلبي، **خطط دمشق**، ص٣٢١.

(١٩٧) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(١٩٨) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٣٦٩.

(١٩٩) وقد تم توسيع هذا المسجد سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م على يد زوجة القاضي بدر الدين حسن ناظر الجيش إذ كانت غالبة على أمر زوجها. وقد أوقفت على نفسها ثم على أولادها ثم على الحرمين الشريفين. وقد كان زوج ابنتها الأمير " أزبك الدوادار" يشفع لها ويخفض ما كان يطلب منها، ثم تزوجت بقاضي القضاة شهاب الدين بن العز، وتوفيت سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢٠٠) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٤٢٨.

(٢٠١) أبو شامة، ذيل **الروضتين**، ص١٥.

(٢٠٢) في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م توفي الأخوان مسعود ومودود ابنا الحاجب مبارك بن عبد الله، فمسعود ولقبه سعد الدين كان صاحب صفد، وممدود ولقبه بدر الدين وكان شحنة دمشق. وأمهما أم فروخشاه بن شاهنشاه صاحب دار السعادة، ففروخشاه أخوهما لأمهما ست عذراء صاحبة المدرسة المجاورة لدار السعادة وبها تربتها، وأما مسعود فداره هي المجاورة لرباط زهرة خاتون قرب حمام جاروخ، هي الآن لجمال الدين موسى بن يغمور. وكان مسعود وممدود أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع صلاح الدين، تقدمت وفاة ممدود على وفاة أخيه بشهر واحد، وأنه مات بداره بدمشق في رمضان، وتوفي مسعود بصفد خامس شوال. أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص٨١.

(٢٠٣) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٧٤.

وكانت عذراء تحب الخير وتدأب على فعله[٢٠٤]، أما أبوها فهو شاهنشاه بن أيوب وأكبر أولاد أيوب، وأخو صلاح الدين والعادل، وقد استشهد سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وهو يحارب تحت راية نور الدين[٢٠٥].

وقد وجدنا أن أغلب المؤرخين وأصحاب التراجم أجمعوا على أن الست عذراء هي بنت شاهنشاه، باستثناء الشيخ بدران في كتابه "منادمة الأطلال"، إذ ذكر أنها بنت للسلطان صلاح الدين الأيوبي[٢٠٦].

وهي واقفة "المدرسة العذراوية" نسبة إليها سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م على الشافعية والأحناف[٢٠٧].

تقع هذه المدرسة بحارة الغرباء داخل باب النصر الذي كان يسمى باب دار السعادة[٢٠٨]، غربي حمام عذراء والمدرسة القجماسية[٢٠٩]. وقد زارها الشيخ بدران قبل أن تهدم وقال إنها كانت في أول زقاق المبلط، وقد صارت داراً ولم يبق من أثرها إلا قبر الواقفة، ومحل قبرها استعمل زاوية يجمع بها سكان الدار النساء في أيام معلومة ويضربون هناك الطبول والمزامر، ويزعمون أنها طريقة المحيا، وللقبر شباك ينفذ على حمام الست عذراء[٢١٠].

وقيل أنها كانت بجوار دار العدل التي سميت في القرن التاسع عشر "دار المشيرية" حيث كان يقيم مشير العسكر في الدولة العثمانية ثم غدت مقراً للبعثة الفرنسية[٢١١]، إلى أن بنى مكانها قصر العدل في ١٩٤٧م[٢١٢].

([٢٠٤]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٢٨.

([٢٠٥]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٤٤.

([٢٠٦]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٨.

([٢٠٧]) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص٢٦٠.

([٢٠٨]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٧٣. بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٢٨.

([٢٠٩]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٤٤.

([٢١٠]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٢٨.

([٢١١]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٦، ص٨٦.

([٢١٢]) الشهابي، قتيبة، **مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية**، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٥م، ص١٤٧. وسيشار له لاحقاً: الشهابي، **مشيدات دمشق**.

٤- الخاتون فاطمة بنت كوكجا

وهي الخاتون فاطمة بنت الأمير كوكجا وهذه الخاتون لم نوفق بالعثور على معلومات عنها أو عن والدها فكل المصادر تكتفي بذكر الاسم فقط. وهي واقفة المدرسة القصاعية سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م. وقد ذكر النعيمي أن ابن شداد قرأ ذلك بنقش على صخرة بابها[٢١٣].

أما موقع المدرسة فهو بحارة القصاعين[٢١٤] وهي محلة الخيضرية أو الخضيرية وما والاها[٢١٥]، وقد شرطت الواقفة إذا تعذر الحضور بالمدرسة يخبر "يدرس" بالجامع الأموي بالرواق الشمالي، كما اشترط في المدرس أن يكون أعلم الحنفية بالأصلين[٢١٦]. فالمدرسة إذاً على المذهب الحنفي. وذكر الغزي أنه وجهت له وظيفة التدريس بالقصاعية تولاها سنة ١٠١٠هـ/١٦٩٨[٢١٧].

وقد اندثرت هذه المدرسة وهذا ما يؤكده بدران، إذ أنه لم يبق سوى جدران تدل على أن هناك كان مدرسة[٢١٨].

وهي واقفة الخانقاه القصاعية كذلك سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م، وتقع في منطقة القصاعين الخضيرية داخل باب الجابية[٢١٩].

وأبرز من تولى مشيختها محمد بن أبي الفتح البعلي الدمشقي[٢٢٠]، ولا أثر لهذه الخانقاه اليوم فقد اندرست تماماً، أما تاريخ وقفها فقد اعتمد بناءً على تاريخ وقف المدرسة[٢٢١].

٥- الست آمنة بنت محمد

وهي بنت محمد بن الحسن بن طاهر بن الران، أخت الست أسماء، ولدت سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وتوفيت سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، ودفنت بمسجد القدم، سمعت من جدها لأمها، القاضي

([٢١٣]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٦٥.

([٢١٤]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص ٩٣.

([٢١٥]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٩٤.

([٢١٦]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٦٥.

([٢١٧]) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ/١٦٥١م)، **لطف السمر وقطف الثمر**، ج١، تحقيق: محمود الشيخ، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٨١م، ص١٣٦. وسيشار له لاحقاً: الغزي، لطف السمر.

([٢١٨]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٩٥.

([٢١٩]) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص ١٩٢.

([٢٢٠]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٨٥.

([٢٢١]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٤٠٤.

المنتجب يحيى بن علي القرشي وعبد الكريم بن حمزة، وحجت هي وأختها، روى عنها ولدها القاضي محمد الدين أبو المعالي بن الزكي[٢٢٢]، وشهاب الدين القوصي وغير واحد. أما ما ذكر من وقفها فهو رباط بنته في دمشق[٢٢٣].

٦- الشيخة دهن اللوز

وهي شيخة العالمات بدمشق الملقبة بدهن اللوز بنت نورنجان التي توفيت سنة أربع عشرة وستمائة للهجرة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وهي آخر بنات نورنجان وفاة، وقد جعلت أموالها وقفاً على تربة أختها بنت العصبة[٢٢٤]، وذكر الذهبي أنها كانت ذات حظوة وهي جدة زين الدين قاضي حلب[٢٢٥].

٧- ست الشام زمرد بنت أيوب

وهي ست الشام زمرد بنت أيوب بن شادي بن مروان أخت الملوك وعمة أولادهم، وكان لها من المحارم خمسة وثلاثون ملكاً[٢٢٦]. أما إخوتها وإما بنو إخوتها. إخوتها الأربعة المعظم توران شاه بن أيوب وصلاح الدين والعادل وسيف الإسلام[٢٢٧].

ولما توفيت دفنت سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م بالمدرسة البرانية[٢٢٨]، حيث دفن شقيقها المعظم توران شاه بن أيوب صاحب اليمن في القبر القبلي من الثلاثة، وفي الأوسط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي صاحب حمص، وكانت قد تزوجته بعد

([٢٢٢]) وهو قاضي دمشق محمد بن علي القرشي، تولى قضاء دمشق أولاً نيابةً عن الشيخ شرف الدين محمد بن عصرون، ثم تولى قاضي القضاة في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة للهجرة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وهو أول من خطب بالبيت المقدس لما فتحه السلطان الملك الناصر وكان يحرص على كتابة عقيدة الغزالي الملقبة بالمصباح ويأمر بتحفيظ الصغار لها. راجع: أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص٤٩-٥٠.

([٢٢٣]) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، وفيات سنة ٥٩٥هـ، ص١٨٠.

([٢٢٤]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٨٦. أبو شامة، ذيل **الروضتين**، ص١٦٤.

([٢٢٥]) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، وفيات ٦١١-٦٢٠هـ، ص١٨٦.

([٢٢٦]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٨٤-٨٥.

([٢٢٧]) أبو شامة، ذيل **الروضتين**، ص١٨٠.

([٢٢٨]) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص٣٠٧. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، ج١٥، تحقيق: محمد بن محمد، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٩٦٢م، ص١٢٠، وسيشار له لاحقاً: الصفدي، الوافي بالوفيات.

أبي ابنها حسام الدين عمر بن لاجين[٢٢٩]، وهي وابنها حسام الدين عمر في القبر الثالث. ويقال للتربة و"المدرسة الحسامية" نسبة إلى ابنها حسام الدين عمر بن لاجين، وكان من أكابر العلماء عند خاله صلاح الدين. وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحساناً إلى الفقراء والمحتاجين، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك وتفرقه على الناس[٢٣٠].

وهي واقفة المدرسة الشامية البرانية التي تولى بناءها شبل الدولة كافور الحسامي[٢٣١]، صاحب المدرسة الشبلية المعروفة على نهر ثورا[٢٣٢]، وهي تقع ظاهر مدينة دمشق بالعقيبة الكبرى، بينها وبين سوق صاروجا. وكان محلها قديماً يسمى بالعينية[٢٣٣].

وقد ذكر من أوقافها طاحون عند باب سلامه ٣ قراريط، أحكار وأراضي في محلة عاتكة، وبستان الصاحب، أراضي السلطاني، ومزرعة ست الشام تابعة للوادي التحتاني، وحكر وأراضي تعرف بكرم ضابط، وأراضي بستان الدورة مع الغراس القديم[٢٣٤].

وتسمى هذه المدرسة بـ "الحسامية" نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين ابن الواقفة التي اشترطت ألا يجمع المدرس بينها وبين غيرها، أما ما تبقى من المدرسة فهو مسجدها وبركة كبيرة للماء في ساحتها وبعض حجرات فوقانية متروكة وبيوت للخلاء على ما يذكره بدران في زمنه[٢٣٥].

([٢٢٩]) حسام الدين عمر بن لاجين وهو الأمير أمه ست الشام بنت أيوب واقفة الشاميتين في دمشق وفي رمضان سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م فجع السلطان "صلاح الدين" بابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب المدرسة التقوية، وبابن أخته في ليلة واحدة، فقد كانا من أكبر الأعوان وأعز الأخوان، ودفن حسام بالتربة الحسامية وهي التي أنشأتها بمحلة العوينة. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٣٦٩. أبو شامة، **الروضتين**، ج٤، ص١٧١.

([٢٣٠]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٨٥.

([٢٣١]) شبل الدولة كافور الحسامي، نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين، ولد ست الشام، وهو الذي كان مستحثاً على عمارة الشامية البرانية لمولاته ست الشام وهو الذي بنى الشبلية الحنفية والخانقاة على الصوفية إلى جانبها. وكانت منزله، ووقف القناة والمصنع والساباط، وفتح للناس طريقاً من عند المقبرة غربي الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش، ولم يكن الناس لهم طريق إلى الجبل من هناك، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفر بالعقيبة وكانت وفاته في رجب سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ودفن على جانب مدرسته. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٢٥.

([٢٣٢]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١١٦.

([٢٣٣]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٤.

([٢٣٤]) T.D. Istanbul, 393, p.102.

([٢٣٥]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٤.

وقد قدّر سوفاجيه تاريخ بناء هذه المدرسة سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م[٢٣٦]، ولكنها احترقت في رجب سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م مع جامع تنكز والخاتونية البرانية جراء الصراع على السلطة بين يلبغا[٢٣٧] الناصري ومنطاش الأمير الثائر علي الظاهر برقوق ثم أعيد بناؤها، كما أجريت فيها إصلاحات عدة في الأربعينات من القرن العشرين[٢٣٨].

وقد رممتها مديرية الأوقاف السورية بإشراف مديرية الآثار، وقد استخدمت كمدرسة ابتدائية للأيتام تقوم بها جمعية الإسعاف الخيري[٢٣٩]، وفي سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م بدأ العمل بإجراء إصلاحات شاملة فيها، وهدم سقفها وفناؤها كما أزيلت الدور التي كانت تشغل قسماً منها[٢٤٠].

وهي واقفة المدرسة الشامية الجوانية أيضاً سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م التي تقع قبلي البيمارستان النوري داخل دمشق[٢٤١]، لصيق المدرسة الظبيانية من الغرب، في المدخل الغربي لزقاق المحكمة[٢٤٢]، إلا أنها خربت ولم يبقَ فيها سوى بابها وواجهتها الحجرية واتخذت دوراً[٢٤٣]. وفي أعلى الباب بلاطة كبيرة نقشت فيها الوقفية، وهي تتضمن جميع القرية المعروفة باسم مرينة[٢٤٤]، وجميع الحصة وهي أحد عشر سهماً ونصف من أربعة وعشرين سهماً من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا[٢٤٥]، وجميع الحصة وهي أربعة عشر سهماً وسبع من أربعة وعشرين سهماً من القرية المعروفة بالتينة[٢٤٦]، ونصف القرية المعروفة بمجيدل القرية وذلك في سنة ثمان وعشرين وستمائة هجرية ٦٢٨هـ/١٢٣٠م[٢٤٧].

([٢٣٦]) شميساني، **مدارس دمشق**، ص١٠٩.

([٢٣٧]) ثورة يلبغا الناصري وتمربغا الأفضلي منطاش على الظاهر برقوق حيث خلع وأودع قلعة الكرك سجيناً. راجع: الملطي، عبد الباسط خليل بن شاهين، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١١٢.

([٢٣٨]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٥.

([٢٣٩]) شميساني، **مدارس دمشق**، ص١٠٩.

([٢٤٠]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٥.

([٢٤١]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٦.

([٢٤٢]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٦.

([٢٤٣]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٦، ص ٨٢.

([٢٤٤]) مرينة من قرى المرج. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٠١. حاشية..

([٢٤٥]) جرمانا: من نواحي غوطة دمشق. ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص١٢٩.

([٢٤٦]) التينة: من قرى جبل قلمون، النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٠١. حاشية ..

([٢٤٧]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٣٠١.

وكانت هذه المدرسة داراً لها جعلتها بعدها مدرسة وفيها توفيت ونقلت إلى تربتها بالشامية البرانية، وهذا ما أثار استغراب العلبي في "خطط الشام" إذ أنه تساءل طالما أن المدرسة الشامية البرانية وتربتها قائمة قبل وفاتها بأكثر من ثلاثين عاماً فلم لم تدفن في مدرستها مباشرة؟ وهو بالفعل كان سؤالاً محيراً إذ لم تتطرق المصادر لهذا الأمر[٢٤٨].

وخربت هذه المدرسة في فتنة تيمورلنك[٢٤٩] سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، ثم أعيد بناؤها، كما احترقت ثانية سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وبقي قسم منها، وحديثاً قامت مكان هذه المدرسة عمارات تحولت إلى معامل للنسيج ومكاتب للتجار[٢٥٠].

ومن أوقافها أيضاً الخانقاه الحسامية ٥٨٥هـ/١١٨٩م التي تقع شمالي المدرسة الشبلية البرانية عند جسر كحيل[٢٥١]، قرب تربة العفيف أبي الفوارس[٢٥٢]، وهي منسوبة لست الشام "أم حسام الدين عمر بن لاجين".

وقد تولى مشيخة هذه الخانقاه جماعة منهم شرف الدين نعمان[٢٥٣]، ولكن الخراب أسرع إليها بعكس المدرسة واندثرت تربة العفيف أيضاً ونقلت التربة الشلبية لتستقر على ضفاف نهر ثورا[٢٥٤].

([٢٤٨]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٦.

([٢٤٩]) يعلق المقريزي على دخول تيمورلنك وأثره على البلاد الشامية والمصرية "وخراب البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمورلنك وتحريقها وقتل أهلها، وارتفاع أسعار الديار المصرية وكثرة الغلاء فيها وطول مدته، وتلف النقود المتعامل بها وفسادها وكثرة الحروب والفتن بين أهل الدولة. راجع: المقريزي، **الخطط**، ج٣، ص١٣٤.

([٢٥٠]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٧.

([٢٥١]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص١٤٣. بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٧٤.

([٢٥٢]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٣٩٦.

([٢٥٣]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص١٤٤.

([٢٥٤]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٣٩٦.

٨- الخاتون عزيزة الدين

وهي عزيزة الدين أقجة[٢٥٥] خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين، وزوجة السلطان الملك المعظم عيسى[٢٥٦].

وقد رجعت بعد وفاة زوجها المعظم عيسى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م إلى دار أبيها في ماردين، ثم حجت واستمرت مقيمة بمكة حتى افتقرت. ولم يبق معها شيء من المال، وصارت تسقي الماء، فمرّ بها من كان يعرفها بدمشق ورآها على هذه الحالة، فلما رجع إلى دمشق أخبر من كان متولياً على أوقافها ومصالحها، فجمع لها شيئاً من المال ثم أرسله إليها، فقالت: أي شيء هذا؟! فقالوا: هذا من وقفك. فقالت: الذي خرجت عنه لله لا أعود فيه. وقالت: أعطوا كل ذي حق حقه"[٢٥٧]. وقد توفيت في مكة ودفنت هناك[٢٥٨].

وهي واقفة المدرسة المارداني على الأحناف، وتقع هذه المدرسة على حافة نهر ثورا لصيق الجسر الأبيض بالصالحية، وقد استغرب ابن كنان في كتابه "المروج السندسية" من النعيمي لأنه عدها مدرسة وهي ليست بمدرسة، ولكن بها بقعة تدريس[٢٥٩] على حد تعبيره. ولكننا حصلنا على كتاب الوقف لهذه المدرسة وما ورد في كتاب الوقف ينفي ما يقوله ابن كنان ويؤكد أنها مدرسة[٢٦٠]. وذكر من أوقافها بستان بجوار الجسر الأبيض وبستان آخر جوار المدرسة، وثلاثة حوانيت بالجسر الأبيض، والأحكار جوارها أيضاً، واشترطت الواقفة على المدرس ألا يدرس بغيرها[٢٦١].

وقد تعرضت هذه المدرسة للترميم وفوق مدخلها من الجهة الشمالية عتبة خشبية محفورة وغرفة العبادة فيها محاطة من الداخل ببراويز خشبية، وللباب إطار خشبي دقيق الصنع. وفي المدرسة ثلاث قطع من الزجاج المحفور القديم موجود في الحمامات وساحة المدرسة مبلطة ببلاط جميل منظم[٢٦٢].

([٢٥٥]) وردت التسمية للواقفة عند النعيمي وابن شداد وبدران بـ "أخشا" ولكن في كتاب الوقف وردت بـ "أقجة".

([٢٥٦]) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص٢٢٧-٢٢٨.

([٢٥٧]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٠٦.

([٢٥٨]) ابن كنان، محمد بن عيسى (ت١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، **المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية**، تحقيق: محمد دهمان، مديرية الآثار القديمة، دمشق، ١٩٤٧م، ص٤٢، وسيشار له لاحقاً: ابن كنان، المروج السندسية.

([٢٥٩]) ابن كنان، المروج السندسية، ص٤٢.

([٢٦٠]) T.D. Istanbul, 602, p.61.

([٢٦١]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٩٢.

([٢٦٢]) شميساني، **مدارس دمشق**، ص١٦٠.

أما ما تبقى من المدرسة فهو جامع مسقوف بجملون قرميدي وبجانبه مئذنة على طراز العمارة الأيوبية[٢٦٣].

٩- حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم

وهي حظ الخير[٢٦٤] خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله والدة عز الدين فروخشاة الذي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، وهي زوجة شاهنشاه بن أيوب أخي صلاح الدين[٢٦٥].

وكان الوقف لابنها فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي عز الدين صاحب بعلبك وأبو صاحبها الملك الأمجد، ونائب دمشق لعمه صلاح الدين وله معروف وبر وتواضع وأدب، وكان للتاج الكندي به اختصاص[٢٦٦].

إن المعلومات الواردة عن الخاتون حظ الخير قليلة جداً لا تكاد تتعدى ذكر الاسم وتاريخ الوفاة عند أغلب المؤرخين وأصحاب التراجم، وهذا ما حدا بنا إلى أن نورد ترجمة لابنها، وهذا ما لحظناه عند أغلب تراجم النساء سواء كُنَّ واقفات أو فقيهات أو محدثات أو غيره.

وهي واقفة المدرسة الفرخشاهية سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، وهذه المدرسة موقوفة على الشافعية والأحناف كما يذكر ابن كثير[٢٦٧]، بينما ذكر البعض أنها على الأحناف فقط مثل بدران[٢٦٨].

وتقع هذه المدرسة بالشرف الشمالي الأعلى إلى جانب التربة الأمجدية[٢٦٩]، مقابل التكية السليمانية، شمالي حديقة الأمة[٢٧٠]، شرقي قصر الضيافة بخمسين متراً في زقاق ضيق يفضي إلى
ساحة واسعة[٢٧١]. وقد زالت المدرسة وبقيت تربة الواقفة[٢٧٢].

([٢٦٣]) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص٤١٩.

([٢٦٤]) وردت التسمية عند ابن شداد والنعيمي بـ "حظ الخير"، بينما وردت عند الشيخ بدران بـ "خطلخير".

([٢٦٥]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٦١.

([٢٦٦]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٣٣٢.

([٢٦٧]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٣٣٢.

([٢٦٨]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٩٠.

([٢٦٩]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٩٠.

([٢٧٠]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص٩٣.

([٢٧١]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٢٠٦.

([٢٧٢]) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص ٤٠٧.

وقد زارها بدران وقرأ على باب تربة المدرسة ما نصه "أمر بإنشاء هذه التربة المباركة الفقيرة إلى الله تعالى خاتون والدة الملك المنصور معز الدنيا والدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب الملكي الناصري، توفي مستهل جمادى الأولى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م[٢٧٣].

وما تبقى من المدرسة تم تجديده سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، إذ تحولت إلى مصلى صغير تعلوه قبة شاهقة، وبقيت جدران المدرسة الشمالية الشرقية واضحة للعيان[٢٧٤].

وفي التسعينات من القرن العشرين اعتنت دائرة الآثار السورية بما تبقى منها، وعلقت على بوابتها لوحة تحمل اسم المدرسة، ولكنها أخطأت إذ كتبت أن الواقف هو الأمير فروخشاه[٢٧٥].

١٠- الست فاطمة السلارية[٢٧٦].

وهي الست فاطمة خاتون بنت السلار. وهي واقفة المدرسة الميطورية[٢٧٧] على الأحناف سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م، وتقع هذه المدرسة شرقي جبل الصالحية[٢٧٨] في حي الأكراد، وقد خربت ولم
يبق منها شيء[٢٧٩].

كانت هذه المدرسة تشتمل على حرم بشباكين مطلين على تربة وفي غربي الحرم تربة الواقفة وبينهما باب، وفي شرقي الحرم مأذنة لها درة ذهب رأسها، وللحرم ثلاثة أبواب شمالية

([٢٧٣]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٩٠-١٩١.

([٢٧٤]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٢٠٦.

([٢٧٥]) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص٤١١.

([٢٧٦]) لم يذكر أحد من المؤرخين عن الست فاطمة خاتون أو عن والدها السلار، وقد اجتهدت وقمت بحصر من يسمى بالسلار في كتب الوفيات، وكان الأقرب إلى فترة الواقفة هو ما ذكره الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات، وهو كمال الدين الشافعي سلاّر بن الحسن بن عمر بن سعيد الإمام المفتي كمال الدين الأربلي الشافعي، صاحب الإمام تقي الدين عمرو بن الصلاح وكان عليه مدار الفتوى بالشام، ولما مات لم يترك بعده في الشام مثله وكان نجم الدين البادرائي قد جعله معيداً بمدرسته، فلم يزل على ذلك إلى أن مات وتفقه عليه جماعة، ومات وقد نيّف على السبعين، سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٦، ص١٥٥. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٢٦٢.

([٢٧٧]) الميطوري كان مزرعة يحيى بن أحمد بن يزيد بن الحكم، وكان يسكن أرزونا وهو الميطور الشرقي. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٦٠٤.

([٢٧٨]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٦٠٤.

([٢٧٩]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص٩٧.

أوسطها كبير، وقدامها فسحة كبيرة بها خلاوي وبشرقيها الدهليز النافذ إلى باب الزقاق وبه باب المدرسة البراني[٢٨٠].

١١-الست عين الشمس

الست الجليلة عين الشمس زوجة السلطان الملك المعظم، ومعها ابنتها ربيعة بنت الملك المعظم المتوفية سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م).

وهذه الست وابنتها قد أوقفت المدرسة القاهرية التي تقع بالصالحية على حافة نهر يزيد، لصيق دار الحديث القلانسية[٢٨١]، وغربي المدرسة العمرية، وهذه المدرسة على الأحناف، وقد زارها بدران ولم يجد سوى جدارها الغربي ولم يزل قائماً، وقد آلت إلى الخراب واندرست ووجد فيها تربة الست وابنتها[٢٨٢].

١٢- العالمة أمة اللطيف

وهي الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي[٢٨٣](٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، وكانت فاضلة لها تصانيف، وهي التي أرشدت ربيعة خاتون إلى وقف المدرسة الصالحية على الحنابلة[٢٨٤].

وقد حصلت من سيدتها أموالاً عظيمة[٢٨٥]. ولكن لما ماتت سيدتها وأبوها سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٤٥م لقيت العالمة شدائد، إذ وقعت في المصادرات، وحبست مدة ثم أفرج عنها، وقد كانت مدة حبسها ثلاث سنين بالقلعة[٢٨٦]، ثم بعد ذلك تزوجها الأشرف صاحب حمص، فسافرت معه

---

(٢٨٠) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص١٤١.

(٢٨١) دار الحديث القلانسية، بها رباط ومئذنة وتعرف بالخانقاه غربي مدرسة أبي عمر أنشأها الصاحب عز الدين أبو ليلى ابن مؤيد الدين الدمشقي القلانسي أحد رؤساء دمشق الكبار، ولد سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م، وسمع الحديث من جماعة ورواه. راجع: النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٧١-٧٢.

(٢٨٢) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٩٥.

(٢٨٣) الناصح الحنبلي توفي الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج الشيرازي، وهم ينتسبون إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، ولد الناصح سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، وقرأ القرآن وسمع الحديث وكان يعظ في بعض الأحيان، ووعظ في حياة الشيخ الحافظ عبد الغني، وهو أول من درس بالصالحية التي بالجبل، وله بنيت وله مصنفات وقد اشتغل على ابن المنى البغدادي، وكان فاضلاً صالحاً وكانت وفاته بالصالحية. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٥٧.

(٢٨٤) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١١٢.

(٢٨٥) الذهبي، **الوفيات** سنة ٦٥١-٦٦٠هـ، ص١٤٥.

(٢٨٦) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٢.

إلى الرحبة وتل راشد ثم توفيت سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، ووجد لها بدمشق جواهر وذخائر نفيسة تقارب ستمائة ألف درهم غير الأملاك والأوقاف[٢٨٧].

وللعالمة ميزة عن غيرها من واقفات العصر الأيوبي ألا وهي المؤلفات التي اشتهرت بها فقد ذكر لها كتاب "التسديد في شهادة التوحيد"، وكتاب "بر الوالدين"[٢٨٨]. وعند وفاتها دفنت في مدرستها في غربي قاسيون شرقي دار الحديث الناصرية لصيق تربة "كجكن"[٢٨٩].

وهي واقفة المدرسة العالمة التي تقع شرقي الرباط الناصري غربي سفح قاسيون تحت جامع الأفرم[٢٩٠].

وقد اندثرت هذه المدرسة ولم يبق منها شي، فهذا ابن عبد الهادي ذكر أنها صارت في عهده حاكورة ولم يبق منها سوى حجر مردوم عليه صورة الوقف وهي: "هذه مدرسة دار الحديث لابنة الناصح الحنبلي"[٢٩١]، وهذا ما أكده بدران لاحقاً فقال: "والمدرسة تبعته (يعني جامع الأفرم) فصارت بستاناً"[٢٩٢].

وكان الوقف على هذه المدرسة يشتمل على:

أ- بستان بجسر البطة[٢٩٣]، والغيضة الثانية.

ب- حكر ابن صبح عند الشامية.

ويذكر أن هذه المدرسة محصورة في عشرين من أعيان الطلبة حسب ما أورده القاضي برهان الدين[٢٩٤]. وإن اندثار المدرسة بهذه السرعة وصغر ما أوقف عليها يعطينا إشارة إلى صغر حجم المدرسة إن ما قورنت بمثيلاتها في العصر الأيوبي.

أما حديثاً فقد ذهب العلبي إلى أن التربة هي المدرسة، والتي تقع شرقي دار الحديث الناصرية وجامع الأفرم[٢٩٥].

---

(٢٨٧) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١١٢.

(٢٨٨) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٣٨.

(٢٨٩) العلبي، **خطط دمشق**، ص٢٤١.

(٢٩٠) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١١٢.

(٢٩١) ابن عبد الهادي، **المساجد**، ص١٥٨.

(٢٩٢) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٤٨.

(٢٩٣) جسر البط. كان بجهة مسجد بحي الشهداء في طريق الصالحية، بين ساحتي عرنوس والبرلمان اليوم، وكان في زمن ابن كتان يعرف بجسر اكذابا بن المترح الصالحي، وكذلك بجسر المترح، الشهابي، **معجم دمشق**، ج١، ص١٤١.

(٢٩٤) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١١٣.

(٢٩٥) العلبي، **خطط دمشق**، ص٢٤١.

وقد عُثر على حجر فوق تربة العالمة مكتوب عليه ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم. أنشأت هذه التربة المباركة التي في لحف جبل قاسيون جوار دار الحديث المعروفة قديماً بزاوية الشيخ عبد الله اليوني بانيها، ويومئذ بدار الحديث النبوي الفقيرة إلى رحمة ربها عزّ وجل أمة اللطيف بنت الشيخ الفقيه الإمام العالم الأوحد ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلي الأنصاري قدس الله روحه ونور ضريحه، آنسها الله عز وجل في قبرها عند وحشتها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنها صنفت كتباً منها كتاب التسديد في شهادة التوحيد في قول لا إله إلا الله. وكتاب بر الوالدين وكتاب محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ترجو بهما النجاة والرحمة يوم القيامة إن شاء الله، وقد أوقفت على هذه التربة برسم القراء على ضريحها وخادم يتولى خدمة القبر، وزيت وشمع وبخور، بستان صدقة وقاعة بدمشق بما نص عليه كتاب الوقف وذلك في شهر رجب أربعين وستماية"[٢٩٦].

١٣- الست عائشة الدماغية

وهي عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ (التي توفيت ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) وزوجة شجاع الدين بن الدماغ (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٦م)، وكان زوجها من أصدقاء العادل سيف الدين أبي بكر أخي صلاح الدين في زمن الشباب، وبقي معه في زمن السلطة يضحكه فحصل له أموالاً جزيلة.

وكانت داره داخل باب الإفرنج فجعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية، ووقفت عليها أوقافاً دارة وهي المدرسة الدماغية سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م[٢٩٧] وهي السنة التي توفيت فيها.

وتقع هذه المدرسة شمالي المدرسة العمادية[٢٩٨] داخل باب الإفرنج وغربي الباب الثاني الذي قبلي باب الطاحون كما أنها شرقي وقبلي الطريق الآخذ إلى باب القلعة الشرقي[٢٩٩].

وقد زارها الشيخ بدران وقد أصبحت قاعة للنشا وداراً للسكنى، ولم يبق أثر يدل على المدرسة. وقد ذكر من أوقافها ثمانية أسهم من أصل أربعة وعشرين سهماً من قصر اللباد شرقي مقري، وثلث مزرعة الدماغية، وحصة من رجم الحميات وحصة من حمام إسرائيل،

([٢٩٦]) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص٤٠٠.

([٢٩٧]) النعيمي، **الدراس**، ج١، ص٢٣٦. ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص٢٦٢.

([٢٩٨]) المدرسة العمادية لصيقة المدرسة الدماغية من جهة القبلة، وقد اختلف في بانيها فقال ابن شداد بناها عماد الدين إسماعيل بن نور الدين، وأوقف عليها الأوقاف السلطان صلاح الدين. ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص ٢٣٧. بينما ذكر النعيمي أن بانيها هو نور الدين محمود زنكي لأجل خطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي، وذكر أوقافها. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٠٨.

([٢٩٩]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٩٧. كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص٩٠.

وحصة من قرية دير سلمان ببلاد المرج ومزرعة شرحوب عند قصر أم حكيم شرقي عرار وقبلي شقحب ومحاكرات وغير ذلك[٣٠٠].

١٤- الخاتون بنت السلطان عز الدين مسعود

وهي الجهة[٣٠١] الأتابكية امرأة الملك الأشرف مظفر الدين موسى[٣٠٢]، بنت السلطان عز الدين[٣٠٣] مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي بن آقسنقر[٣٠٤].

وهي ليست خاتون بنت نور الدين رسلان[٣٠٥] بن أتابك صاحب الموصل كما أخطأ في

ذلك ابن شداد[٣٠٦]، والصواب أنها أخت رسلان وليست ابنته[٣٠٧].

وقد توفيت الواقفة سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م ودفنت بمدرستها في الصالحية التي أوقفتها مدرسة للشافعية ليلة وفاتها[٣٠٨].

---

(٣٠٠) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٩٧-٩٨.

(٣٠١) الجهة: ويكنى باللفظ عن المرأة الجليلة كما يكنى عن الرجل العظيم بالجناب. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٢٤٨.

(٣٠٢) الملك الأشرف موسى بن العادل باني دار الحديث الأشرفية، وجامع التوبة وجامع جراح، لما ملك دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م نادى مناديه أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، كان البلد في غاية الأمن والعدل وكثرة الصدقات والخيرات، وكانت القلعة لا تغلق في ليالي رمضان كلها وقد كان أوصى بالملك من بعده لأخيه الصالح إسماعيل. توفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٥٧-١٥٨.

(٣٠٣) عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل نحواً من ثلاث عشرة سنة من خيار الملوك كان بنسبة نور الدين الشهيد عمه ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بالموصل، توفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٧.

(٣٠٤) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص١٢٩.

(٣٠٥) صاحب الموصل نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن الأتابك. وكان شهماً شجاعاً فيه ظلم وجبروت، وكانت دولته ثمانية عشر عاماً بعد أبيه، وبنى مدرسة للشافعية في غاية الحسن وتملك بعده ابنه عز الدين مسعود. الذهبي مختصر تاريخ الإسلام سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، ص٢٢٧-٢٢٨. وكان قد تزوج الملك الأشرف صاحب حران بأخت صاحب الموصل نور الدين وهي الجهة الأتابكية صاحبة التربة والمدرسة بالجبل. راجع: أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص١٠٨.

(٣٠٦) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص٢٥١.

(٣٠٧) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٧٦.

(٣٠٨) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص ٢٣٨. أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص٢٦٤.

وتقع المدرسة الأتابكية بصالحية دمشق بسفح قاسيون[٣٠٩]، غربيها المرشدية ودار الحديث الأشرفية المقدسية[٣١٠]، وشرقي حمام العرايس[٣١١].

ولقد زارها ابن طولون وأعطانا وصفاً كاملاً لهذه المدرسة فقال: "وهذه المدرسة تشتمل على حرم على معزبة لطيفة بشباك غربي يطل على طريق غير نافذ آخذ إلى نهر يزيد، وباب قبالة هذا الشباك من الغرب لتربة الواقفة، ولهذا الحرم ثلاثة أبواب أوسطها كبير، قدامها صحن لطيف يصعد من باب في غربيه إلى مئذنة لها، وتجاهه من جهة الغرب ساحة بها بير ماء وفي قبليها شباكان لتربة الواقفة وكذا في شمالها. وفي قرنتها بين الشرق والشمال باب يذهب منه إلى قاعة معدة للمدرس، والآن ساكن بها البواب وهي قاعة معظمة مركبة على نهر يزيد، وشمالي أبواب الحرم باب المدرسة المذكورة وهو مقنطر بحجر أسود وأبيض وشكله من أعلاه غريب"[٣١٢].

ثم بعد ذلك بزمن زارها الشيخ بدران ووقف عليها بعد جهد كما يذكر فقال: "وبابها مثل باب غيرها من مدارس الأمراء، مزخرف أعلاه بالحجر المعجن قائم على صفة محراب، وباب الدخول في الوسط، وقد بنيت لها منارة يظهر عليها آثار الحدوث، يصعد إليها بسلم من الحجر عليه آثار القدم، والجدار الغربي مبني بحجارة ضخمة، وبالجانب القبلي مسجد لطيف، يظهر لمن رآه أنه مستحدث وبجانبه إلى الشرق تربة مبنية بالحجارة الكبيرة، ولها شباكان في الحائط القبلي يطلان على بستان، وشباكان أيضاً يطلان على دمشق، وقد تهدم أعلاها، وبها قبران، وبساحتها بئر يجتمع الماء فيه من نهر يزيد. وعليه مضخة تجذب الماء إلى الأعلى، ومن هذا يظهر أن المدرسة قد استولى الخراب على أكثرها، فتناولتها أيدي المختلسين، وبقي جانب منها، فهيأ الله له بعض أهل الخير، فجعله مسجداً تقام فيه الصلوات، والناس الآن يسمونها جامع الثابتية"[٣١٣].

إذاً فزيارة الشيخ بدران لها أكدت أن الخراب زحف عليها، وتناولتها أيدي المختلسين، وحول جانب منها إلى مسجد يسميه الناس الثابتية[٣١٤]". وهذا ما أشار إليه ابن عبد الهادي في

([٣٠٩]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٧٧.

([٣١٠]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص٧٥.

([٣١١]) ابن طولون، **القلائد**، ج١، ص١٦٥.

([٣١٢]) ابن طولون، **القلائد**، ج١، ص١٨٨-١٨٩.

([٣١٣]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٧٧.

([٣١٤]) للمزيد عن مسجد الثابتية راجع: النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٤٤٣.

كتابه "المساجد" إذ بيّن أنه لم يبق من المدرسة إلا مسجد صغير جداً له صحن صغير ومنارة مربعة قديمة من الآجر وبقية أجزاء المدرسة ومرتفعاتها صارت بيوتاً[٣١٥].

وفي سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م كان في المدرسة خمس غرف أرضية، يدرس فيها ستة طلاب وقد سترت واجهتها بتنور وحوانيت وأزيل الجدار الذي كان بين الحرم والقبة والذي كان فيه الباب ودرس القبر. وجعلت القبة مع الحرم حرماً واحداً للصلاة ثم سقط قسم من القبة فاستبدل بها سقف من خشب وطين.

أما ما تبقى من المدرسة في العصر الحاضر فهو مسجد لطيف ينزل إليه ببضع درجات، وللمدرسة مئذنة مربعة من الآجر وما تزال واجهتها بحالة سليمة[٣١٦].

١٥- ربيعة خاتون

وهي ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب، أخت صلاح الدين والعادل وأخت ست الشام (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).

زوّجها أخوها –صلاح الدين– أولاً بالأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر، وتزوج هو بأخته عصمة الدين خاتون التي كانت زوجة الملك نور الدين، واقفة الخاتونية الجوانية والخانقاه، ثم لما مات الأمير سعد الدين زوّجها من الملك مظفر الدين صاحب إربل[٣١٧] فأقامت عنده بإربل أزيد من أربعين سنة حتى مات ثم قدمت دمشق[٣١٨].

وكان في خدمتها – العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي – فأحبتها وحصل لها من جهتها أموال عظيمة وأشارت عليها ببناء المدرسة الصاحبية بسفح قاسيون فبنتها ووقفتها على الناصح والحنابلة وتوفيت بدمشق سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م في دار العقيقي التي صُيّرت المدرسة الظاهرية، ودفنت بمدرستها تحت القبو[٣١٩].

وقد جاوزت ربيعة خاتون ثمانين سنة وأدركت من محارمها الملوك وأولادهم وأولاد أولادهم أكثر من خمسين رجلاً، فإن إربل كانت لزوجها مظفر الدين، والموصل لأولاد بنتها، وخلاط[٣٢٠]

([٣١٥]) ابن عبد الهادي، **المساجد**، ص١٩١.

([٣١٦]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١١٥.

([٣١٧]) إربل: مدينة كبيرة من أعمال الموصل، ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، ص١٦٧.

([٣١٨]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٢.

([٣١٩]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٤، ص٩٧-٩٨.

([٣٢٠]) قصبة أرمينيا الوسطى، وهي اسم يطلق على البلدة العامرة كثيرة الخيرات. ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٨٠-٣٨١.

وتلك الناحية لابن أخيها وبلاد الجزيرة الفراتية للأشرف ابن أخيها، وبلاد الشام لأولاد أخيها والبلاد المصرية والحجاز لأخوتها وأولادهم[٣٢١].

وقد ذكر من شعرها:

فيا مانع الإسلام صبراً فإنما بصبرك في كل المواطن يقتدى
ولو كان غير الموت دافعت دونه لطعن يرد السمهري مقصدا
وغادرت جفن الأفق بالسمر أوطفاً وهذا المواضي بالنجيع موردا
ولكنه دهر إذا ما نعيمه تحول بؤساً هدّ ما كان مشيداً [٣٢٢]

وهي واقفة المدرسة الصاحبية للحنابلة في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م التي تقع بسفح جبل قاسيون بالصالحية من الشرق[٣٢٣]، وهي معروفة مشهورة في حارة الأكراد[٣٢٤]، وقد تعرضت للضرر أثناء فتنة تيمورلنك[٣٢٥] ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م واتخذها الناس مصلى ولكنها ما تزال تحتفظ بأكثر بنائها القديم[٣٢٦].

وذكر من أوقافها قرية جبة عسال، والبستان الذي تحت المدرسة والطاحون وحكورة غالب تلك الحارة وجوارها[٣٢٧]، كما ذكر أنها جعلت للمدرس في كل يوم درهمين وللمعيد درهماً وللطلبة كل واحد نصف درهم ويكون طلبة العلم عشرين"[٣٢٨].

ووصف هذه المدرسة ابن طولون وقال فيها "وهذه المدرسة من أحاسن المدارس هيئتها هيئة قاعة متسعة بإيوان قبلي من شباكان مطلان على جنينة شمالي نهر يزيد وبه قاعتان شرقية وغربية وإيوان شرقي وإيوان آخر مثله غربي به قبر، ولصيق هذا الإيوان الشرقي باب ينفذ إلى سلم بأسفله بيت الماء بماء حار، وقبالة هذا الباب لصيق الإيوان الغربي التربة ولها عدة شبابيك

([٣٢١]) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص١٢٠-١٢١.

([٣٢٢]) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م)، **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٢٣. وسيشار له لاحقاً: الحنبلي، شفاء القلوب.

([٣٢٣]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٧٩.

([٣٢٤]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٣٧.

([٣٢٥]) تيمورلنك: هو تمرلنك وقيل تيمور كلاهما بمعنى واحد، ولد سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، في قرية تسمى خواجه ايغار من أعمال تش، من قادة التتار. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص٢٥٤.

([٣٢٦]) شميساني، **مدارس دمشق**، ص٢١٠.

([٣٢٧]) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٤٥-٢٤٦.

([٣٢٨]) الموصلي، ياسين الخطيب العمري بن خير الله (ت ١٢٣٢هـ/١٨١٦م)، **الروضة الفيحاء في تواريخ النساء**، الدار العالمية للطباعة والنشر، (د.م)، ١٩٨٧م، ص٣٨٤. وسيشار له لاحقاً: الموصلي، الروضة الفيحاء.

بعضها إلى صحن المدرسة وبعضها إلى الطريق، وشمالي هذا الصحن شباكان مطلان على الطريق المذكور بينهما باب المدرسة وهو باب معظم محدد بواجهة متقنة وفي أعلى هذه المدرسة عدة خلاوي فك بعضها في هذه الأيام لما خربت محلتها"[٣٢٩].

إن ما يلاحظ أن ما أوقف على هذه المدرسة قليل مقارنة ضخامة بنائها وحسن تنسيقها مما جعل الواقفة تواجه مشكلة حقيقية لاحقاً. إذ شرعت في بنائها محكماً بمعنى "أنها أنفقت عليها كثيراً" فلم تتته المدرسة وما بقي معها إلا اليسير فاشترت به وقفاً يسيراً[٣٣٠].

١٦- فاطمة بنت خولان

وهي فاطمة بنت خولان بن عشائر الصحراوي، زوجة علي بن عشائر الصحراوي المزي. وهي صاحبة وقف ذري، على ولدها "عبد الخالق بن علي الصحراوي" ثم على أولاده ثم أولاد أولاده ثم نسله وعقبه. ومن يتوفى من نسل الموقوف عليه "عبد الخالق" يعود ما كان جارياً عليه إلى من معه في درجته من أهل الوقف يقدم الأقرب فالأقرب[٣٣١].

وكعادة الكتب الوقفية فإن الوقف ينتهي على مصالح المسجد الأقصى في حال انقراض نسل الموقوف عليه، ثم من بعده على الفقراء والمساكين بشكل عام.

وقد أوكلت مهمة النظر إلى نفسها ثم إلى الأرشد من نسل الموقوف عليه، وفي حال انقراض نسل الموقوف عليه فالنظر لحاكم دمشق. أما تاريخ هذا الوقف فهو في سنة ثلاث وأربعين وستمائة للهجرة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م.

أما المال الموقوف فهو حصتان: إحداهما نصف بستان حراجي يعرف ببني الملاح والثانية ثمن بستان يعرف بدف المعصدة[٣٣٢].

والملاحظ أن السبكي لم يكن بقصده أن ينقل لنا عن الواقفة ووقفها شيئاً. فكما هو معروف أنه مفتى، وإنما أراد أن يوضح مسألة طرحت عليه.

([٣٢٩]) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٤٦.

([٣٣٠]) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٢٤٦.

([٣٣١]) السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) **فتاوى السبكي**، تحقيق: حسام الدين القدسي، م١، دار الجبل، بيروت، ١٩٩٢، ص٥٠١. وسيشار له لاحقاً: السبكي، فتاوى.

([٣٣٢]) السبكي، **فتاوى**، م١، ص٥٠١.

١٧- الخاتون أرغوان الحافظية

وهي الأميرة عصمة الدين والدنيا أرغوان الحافظية عتيقة الملك العادل المتوفاة سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)[٣٣٣]، بنت السلطان معز الدين قيصر شاه بن السلطان قلج[٣٣٤] أرسلان[٣٣٥]، أحد سلاجقة الروم.

وقد سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها للحافظ أرسلان صاحب قلعة جعبر وكانت امرأة عاقلة مدبرة عمرت دهراً، ولها أموال جزيلة عظيمة، وهي التي كانت تصلح الأطعمة للمغيث عمر بن الصالح أيوب[٣٣٦]، وهو مسجون بالقلعة[٣٣٧]، ثم صادرها الصالح إسماعيل، فأخذ منها أربعمائة صندوق من المال[٣٣٨]، وهذا دليل واضح على ضخم ثروتها الكبيرة، وربما كان الدافع وراء واقفها هو خوفها من المصادرات.

وقد أوقفت دارها التي تعرف بدار الإبراهيمي بدمشق على خدامها واشترت بستان النجيب ياقوت الذي كان خادم الشيخ تاج الدين الكندي، وجعلت فيه مسجداً وتربة ووقفت عليه أوقافاً
كثيرة جيدة منها بستان بصّارو"[٣٣٩].

كما أنها بنت بالصالحية مدرسة تحت نهرثورا قرب عيني الكرش[٣٤٠] [٣٤١] حسب ما يذكر بدران إلا أننا لم نعثر على مدرسة تحمل اسم الواقفة.

وقد حدّد ابن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) مكان التربة والمسجد إذ أنها تقع قبلي جسر كحيل[٣٤٢] وشمالي التربة القميرية بدرب الصالحية الشبلي[٣٤٣].

([٣٣٣]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٨، ص٣٥١.

([٣٣٤]) قلج أرسلان بن محمد بن عمر، ملك حماة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، توفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م. راجع: الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٩٦.

([٣٣٥]) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص١٢٥.

([٣٣٦]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠.

([٣٣٧]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٣٣٢.

([٣٣٨]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠.

([٣٣٩]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠.

([٣٤٠]) عين الكرش، نبعة ماء كانت جنوبي المدرسة الحافظية، وكان ماؤها يجري في قناة إلى محلة عين الكرش الحالية، واليوم زالت النبعة وبقي اسمها شائعاً بالتواتر الشفهي بين الناس. الشهابي، **معجم دمشق**، ج٢، ص٩٢.

([٣٤١]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٣٣٢.

توفيت الواقفة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، ودفنت في تربتها التي أقامتها ضمن تابوت من الخشب المنقوش، نقل فيما بعد إلى متحف دمشق وعليه كتب ما يلي: "هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة فخر الخواتين عصمة الدين والدنيا بختي خاتون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصر شاه بن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم والأرمن قليج أرسلان قدس الله روحه ونور ضريحه وذلك في مستهل شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة"[٣٤٤].

١٨- بابه خاتون

وهي بنت السلطان أسد الدين شيركوه[٣٤٥]، التي اشترت داراً وحماماً وقرية كامد[٣٤٦]، وحصة من قرية برقوم[٣٤٧] من أعمال حلب، وحصة من قرية بيت رامه[٣٤٨] ثم وقفت ذلك جميعه على نفسها أيام حياتها، ثم من بعدها على ابنة عمها زهرة خاتون بنت الملك العادل، مشترطة أن تكون الدار مدرسة[٣٤٩]، وهي العادلية الصغرى، على المذهب الشافعي.

ثم إنها كتبت كتاب وقفها، فجعلت منه ما هو مصالح المدرسة ومصارفها، ومنها ما هو على أقاربها ومعتقيها[٣٥٠].

وقد حصلنا على حجة الوقف التي تنشر لأول مرة في الملحق من مركز المخطوطات في الجامعة الأردنية، وتاريخ كتاب الوقف في ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، ونستطيع القول أن وقفها قد نفع

---

(٣٤٢) جسر كحيل: كان في الصالحية وعرف فيما بعد بجسر الشبلية نسبةً للمدرسة الشبلية بجانبه. الشهابي، **معجم دمشق**، ج١، ص١٤٤.

(٣٤٣) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٣١٥.

(٣٤٤) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص١٢٥.

(٣٤٥) أسد الدين شيركوه، صار عند نور الدين أكبر أمرائه وأخصهم عنده، وأقطعه الرحبة وحمص مع ماله عنده من الإقطاعات، وذلك لشهامته وشجاعته وصراحته وجهاده في الإفرنج، في أيام معدودات ووقعات معتبرات، ولا سيما يوم فتح دمشق، ومن ذلك ما فعله بديار مصر، وكانت وفاته يوم السبت فجأة بخانوق حصل له سنة ٥٦٤هـ/١٢٥٦م، وإليه ينسب الخانقاه الأسدية ثم آل الأمر إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٤، ص٢١١.

(٣٤٦) كامد: لعلها كامد اللوز وهي قرى لبنان تقع شمالي راشيا. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٣٦٨ حاشية.

(٣٤٧) لم يرد في حجة الوقف ذكر لهذه القرية.

(٣٤٨) بيت رامه كما وردت في حجة الوقف وليس بيت الدير كما يذكر بدران. وهي قرية مشهورة بين غور الأردن والبلقاء. ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، ص٥٢٠.

(٣٤٩) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٢٧.

(٣٥٠) **المرجع نفسه**، ص١٢٧.

فئات كثيرة من المجتمع من طلاب ومدرسين ويتامى سواء من خلال الرواتب الشهرية أو من خلال العطاء العيني الذي يرافق الوقف، وقد حددت كل شيء بدقة متناهية خوفاً من الالتباس.

وأما الوقف على المدرسة وتوابعها هما قريتي كامد وبيت رامة التي يظهر أنها تحتوي على مزارع ومعصرة، بالإضافة إلى مزرعة وحمام جوار المدرسة.

١٩- زهرة خاتون

وهي بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب[٣٥١][٣٥٢]، وهي التي قامت بابه خاتون بوقف الدار والحمام والحصص من القرى عليها.

فقامت زهرة وأوقفت على المدرسة العادلية الصغرى مزرعة في حوران كما يظهر من حجة وقفها التي حصلنا عليها كذلك، وننشره هنا في الملحق لأول مرة، والمؤرخ سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م أي بعد سنة من وقف بابه خاتون.

وقد استفاد من هذا الوقف الطلاب ولمدرسين والعتقاء، أما موقع المدرسة فهو داخل باب الفرج قبلي المدرسة الدماغية والعمادية وشرقي باب قلعة دمشق الشرقي[٣٥٣]، وذكر بدران أنه لحقها الضرر والحرق في هجوم التتار سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م[٣٥٤]، وقد حرقت مؤخراً وبقيت جدرانها قائمة[٣٥٥].

٢٠- خديجة خاتون

وهي بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل بن أبي بكر بن أيوب التي توفيت سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م[٣٥٦].

([٣٥١]) السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، كان من خيار الملوك وأجودهم سيرة ديناً عاقلاً صبوراً وقوراً أبطل المحرمات والخمور والمعازف من مملكته كلها، وقد كانت ممتدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها، أخذها بعد أخيه صلاح الدين سوى حلب فإنه أقرها بيد أخيه الظاهر غازي لأنه زوج ابنته صفية الست خاتون، وكان العادل حليماً صفوحاً صبوراً، توفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٨٦-٨٧.

([٣٥٢]) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص ٢٤٣.

([٣٥٣]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٦٨.

([٣٥٤]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٢٧.

([٣٥٥]) كرد علي، **خطط الشام**، ج٦، ص٨٦.

([٣٥٦]) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص٢٢٨.

وهي أخت الناصر داوود، وكان المعظم قد عقد قرانها على خوارزم شاه ولكنه لم يجتمع بها[٣٥٧]، توفيت ببستان المارداني سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، ودفنت بتربتها التي أنشأتها جوار تربة الشيخ الفرنثي بالجبل[٣٥٨].

وهي واقفة المدرسة المرشدية سنة للهجرة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، وتقع هذه المدرسة على نهر يزيد بصالحية دمشق جوار دار الحديث الأشرفية[٣٥٩]، وهي من المدارس التي بقيت إلا أن داخلها متهدم ومجموعها مختلس[٣٦٠].

وقد زارها الشيخ بدران وقال: "أن بابها باب عظيم والجدار الشمالي منها عجيب البناء جداً، إلا أن داخلها خراب وقد اختلسها قوم فاتخذوها للسكنى"[٣٦١]. وتعتبر مئذنة هذه المدرسة أقدم مئذنة[٣٦٢] في دمشق[٣٦٣].

ورد أنه كتب على باب المدرسة ما نصه "هذا ما أوقفت الست الجليلة عصمة الدين خديجة خاتون بنت السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وذلك حصة من حمام الكليب خمسة أسهم وثلثي سهم وخمس سهم وسبع سهم وعن طاحون الطرب الخمس، ودار بجبل الصالحية[٣٦٤]".

وحصة بقرية تقي الدين "سبعة أسهم ونصف سهم وربع سهم وثلث عشر سهم". وحصة بقرية الطرة "ثلثا سهم وثلث سبع سهم" وحصة بخان عاتكة[٣٦٥] ثمان أسهم ونصف". وحصة بجبة عسال من قصر معلولا "ثلث أسهم" ومن الجبة سهم ونصف، ومن القربانية سبع أسهم وبستان المارداني بكماله.

وذلك في سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، رحم الله واقفة هذا المكان"[٣٦٦].

([٣٥٧]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٢١٥.

([٣٥٨]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٠٠.

([٣٥٩]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٧٦. بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٠٠.

([٣٦٠]) محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص٩٤.

([٣٦١]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٠٠.

([٣٦٢]) ولا تزال هذه المئذنة قائمة فوق جامع المرشدية في جادة المدارس من حي الصالحية وكان من آجر بطبقة واحدة وجدد درابزينها في عهد الملك المعظم شرف الدين عيسى (ت٦٢٤هـ). الشهابي، **معجم دمشق**، ج٢، ص١٥٧.

([٣٦٣]) الشهابي، **مشيدات دمشق**، ص٤٣٥.

([٣٦٤]) جبل الصالحية وهو القسم من جبل قاسيون، الذي كان يضم قرية الصالحية. انظر: جبل قاسيون، الشهابي، **معجم دمشق**، ج١، ص١٣٨.

([٣٦٥]) خان عاتكة، مجهول الموقع، درس، الشهابي، **معجم دمشق**، ج١، ص٢٣٩.

([٣٦٦]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٧٦.

وقد وصف ابن طولون في زمنه هذه المدرسة فقال: إن هذه المدرسة مشتملة على حرم مقبي بشباكين إلى القبلة مطلين على جنينة وشباكين مطلين من جهة الشمال على الطريق، وفي قرنته الغربية من جهة القبلة باب تربة الواقفة وفي قرنته الشرقية من جهة الشمال باب الحرم وقدامه فسحة بها صفة، وباب في هذه الفسحة إلى القبلة يتوصل منه إلى قاعة معدة للمدرس وجنينة قبليها على حافة نهر يزيد من جهة الشمال، وفي هذه الفسحة باب المدرسة الخارج، وفي قرنة هذه المدرسة الغربية مئذنة بابها من الطريق المذكور. وعلى باب هذه المدرسة طبقة معدة للبواب والمؤذن[٣٦٧].

٢١- خاتون بنت شومان

وهي بنت ظهير الدين شومان، أحد مماليك بني أيوب، وعلى ما يبدو أن الواقفة التي لم نعثر على معلومات عنها كانت في أواخر العهد الأيوبي وبداية بروز المماليك على الساحة ووصولهم إلى سدة الحكم.

وهي واقفة المدرسة الشومانية أو الطيبة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وهي للشافعية، وتقع هذه المدرسة قبلي المدرسة النورية الحنفية، وشرقي تربة زوجة تتكز بقرب الخواصين داخل دمشق[٣٦٨]. وفي زمن ابن عبد الهادي تحولت المدرسة إلى مسجد يسمى "مسجد الكوافي" وهو مسجد صغير له صحن صغير فيه ست غرف جعلت اليوم مدرسة ابتدائية تسمى مدرسة أبي العلاء[٣٦٩].

أما لماذا ذكرت هذه المدرسة باسمين الشومانية والطيبة؟

فإننا نعتقد أن الشومانية نسبة للواقفة فهي خاتون بنت شومان، أما الطيبة فسميت بذلك تيمناً[٣٧٠]. وأول من وليها من المدرسين هو الشيخ تاج الدين عبد الرحمن ثم من بعده أخوه شرف الدين[٣٧١].

وقد تعرضت هذه المدرسة للتدمير على يد تيمورلنك وجنوده سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م، فأعيد بناؤها[٣٧٢]، وقد تردد عليها بدران مراراً، وذكر أنها اندرست وصارت دوراً للسكنى[٣٧٣].

([٣٦٧]) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٣٤.

([٣٦٨]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١١٥.

([٣٦٩]) ابن عبد الهادي، **ثمار المقاصد**، ص٢٤٨.

([٣٧٠]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٣١٥.

([٣٧١]) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ص ٢٤٢.

([٣٧٢]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٩.

([٣٧٣]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١١٦.

٢٢- فاطمة خاتون بنت حسام الدين أبي سعيد كوكي.

-لم نعثر على معلومات عنها- أوقفت على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام أبي حنيفة النعمان المقيمين بالمدرسة داخل باب الجابية بمحلة القصاعين، وذلك ربع الحاصل للمدرس والنصف والربع للفقهاء والمتفقهة الحنفية بعد إقامة إمام حنفي ومؤذن وقيم يخدمها وأن يكون للناظر فيها وفي عمارتها وإصلاحها. والقيام بخدمتها – واستئجار من يقوم بمصارف الأوقاف وذلك سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م[٣٧٤].

(٣٧٤) تم تسجيل هذه الوقفية في العهد العثماني ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ووثقت في بداية العهد العثماني في دفتر الأوقاف الموجودة في مصر وبلاد الشام، والذي نشر مؤخراً. أوزقان، آيدين، **الأوقاف في مصر قبل وخلال العهد العثماني**، إستانبول، ٢٠٠٥م، ص٢٠٨.

الفصل الرابـع

الآثار التعليمية لوقف المرأة

الفصل الرابع

الآثار التعليمية لوقف المرأة

كان الوقف أحد الأسس المهمة للنهضة الإسلامية الشاملة بأبعادها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية. وفيما يخص الجانب العلمي، كان الوقف وراء كل مظاهر النشاط العلمي في أرجاء الدولة الإسلامية، حيث بلغت الأموال الموقوفة على العلم والعلماء حداً بالغاً، ومن خلال إطلالة سريعة على المدن الإسلامية في العصور الوسطى نجد أن هناك مدارس كثيرة في العالم الإسلامي ومصادرنا تؤكد ذلك[٣٧٥].

أما مدينة دمشق فإننا نجد أنها نهضت نهضة علمية واسعة في العصر الأيوبي برغم الحروب الصليبية، وتميزت بكثرة مدارسها وإجراء الأرزاق والأعطيات لمدرسيها وطلابها والقائمين عليها. وهذا بفضل نظام الوقف الذي ازدهر في هذا العصر وشاركت فيه المرأة مع الرجل.

وبما أننا قد أحصينا إحدى وعشرين (٢١) واقفة، وستة عشر مدرسة (١٦) تابعة لأوقافهن، فلا بد من الحديث عن الآثار التي خلفتها هذه المدارس على الحركة التعليمية في دمشق خصوصاً، فمع أن المدارس التي أوقفتها المرأة لا تعادل ما أوقفه الرجال، إلا أننا نقصد هنا بيان مساهمة وقف المرأة على الحركة التعليمية من حيث المذاهب والمدرسين وعملية التدريس والطلاب وبعض نسخ التوقيع – التي وجدت في عصور لاحقة – لعلماء للتدريس في مدارس أوقفتها النساء.

فالفقهاء أجازوا الوقف على طلبة العلم واعتبروا ذلك من وجوه البر فهو يعادل الجهاد في سبيل الله تعالى، استناداً إلى الأحاديث النبوية التي تضع مرتبة العلم والعلماء أعلى من مرتبة الجهاد في سبيل الله[٣٧٦]. فقد جاء عن النبي ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء" كما جاء عنه ﷺ: "أفضل الناس المؤمن المتعلم"[٣٧٧].

([٣٧٥]) عبد الرحمن، أحمد عوف، **أوقاف الرعاية الصحية في المجتمع الإسلامي**، سلسلة الأمة، ع١٩، قطر، ١٤٢٨هـ، ص١٢١. وسيشار له لاحقاً: عبد الرحمن، أوقاف الرعاية الصحية. ساعاتي، يحيى محمود، **الوقف وبنية المكتبة العربية، استبطان للموروث الثقافي**، ط١، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٩٨م، ص١٦. وسيشار له لاحقاً: ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية.

([٣٧٦]) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٣٦.

([٣٧٧]) البخاري، **صحيح البخاري**، ج١، ص٣٧.

ومن خلال تتبعنا لما أوقفته المرأة في دمشق أثناء العصر الأيوبي بدا واضحاً أن الوقف على التعليم كان له النصيب الأكبر، فقد أحصينا ستة عشر مدرسة، ولا نحصر التعليم بالمدارس، فالخوانق أيضاً كان يتم فيها التدريس.

وقد لمس الرحالة ابن جبير هذا الدور الفاعل للمرأة في مجال الوقف حين زار دمشق في هذا العصر فقال: "ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق عليها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف"[٣٧٨].

فالمرأة كما الرجل ساهمت في ازدهار الحركة العلمية في هذا العصر.

وبما أن أغلب النساء الواقفات هن من العائلة الحاكمة – زوجات وبنات السلاطين– وهن أيوبيات أي كرديات الأصل، وحديثات عهد بالثقافة الإسلامية وبحاجة إلى رضا الرعية وكسبها إلى جانبها، فكان التعليم أهم الوسائل التي اعتمدن عليها، فكثر إنشاء المدارس بشكل كبير في هذا العصر.

يقتضي الحديث عن الآثار التعليمية لوقف المرأة أن نتحدث عن كيفية التدريس في المدارس عموماً أثناء العصر الأيوبي، فقد اعتمد التدريس على الإلقاء والتلقين والإملاء، وربما دارت المناقشات العلمية بين المدرس وطلابه.

وعن طريقة إعطاء الدرس، فقد كان يفتتح بالبسملة، والصلاة والتسليم على الرسول وآله وصحبه، وربما ذكرت بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ثم يبدأ إعطاء الدرس، فإذا ألقى المدرس أو الشيخ من محفوظاته أو مذكراته فالدرس يسمى إملاء ويكون الإلقاء عندئذ بطيئاً، فإذا انتهى الإملاء عرج المدرس إلى الشرح والإيضاح والتفسير لغوامض الكلام ويدون الطلاب هذه الشروح على هوامش أوراقهم التي كتب عليها الأصول. وعند الانتهاء تعاد قراءة ما كتب من قبل المدرس أو من قبل أحد الطلاب لتصحيح ما كتب. وإذا كان الدرس من كتاب يمكن الحصول عليه وجب على الطلاب شراؤه، ويذكر أن المدرس كثيراً ما كان يقوم في ذلك العصر بمقام السائل والمجيب. فيلقي على الطلبة بضعة أسئلة ليختبر فهمهم وليجيب بنفسه على ما تعسر عليهم أن يجيبوا عنه[٣٧٩].

([٣٧٨]) **رحلة ابن جبير**، ص٢٢٠.

([٣٧٩]) شلبي، أحمد، **تاريخ التربية الإسلامية**، دار الكشاف، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٣٧٤. وسيشار له لاحقاً: شلبي، تاريخ التربية.

أما أيام الدراسة فلم تكن واحدة في كل المدارس فقد كانت تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة من كل أسبوع حسب شروط الواقف، كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديداً دقيقاً، إذ لم تكن مواعيد بداية ونهاية اليوم الدراسي واضحة، وكانت الدراسة عموماً فيما بين طلوع الشمس وأذان المغرب[٣٨٠].

ومن خلال الاطلاع على بعض الحجج المتاحة عن وقف المرأة نجد أنه بالإضافة إلى زوجات السلاطين شاركت زوجات الأمراء والعالمات ونساء الطبقة العامة في الوقف.

ومن خلال دراسة بعض الوقفيات التي توفر بعضها اتضح أن بعض ما يوقف على المدارس كان ضخماً يصل إلى مزارع وقرى كما في وقف المدرسة الشامية الجوانية، إذ أوقفت قرية مرينة ومجيدل القرية ونصف قرية مجيدل السوداء، وأسهم من قرى أخرى[٣٨١].

وبعضها الآخر كان وقفاً صغير الحجم مثل وقف المدرسة العالمة والذي لم يتجاوز بستانين اثنين وحكر صغيرة وكانت محصورة في عشرين من أعيان الطلبة[٣٨٢].

وهذا التفاوت في حجم الأوقاف عائد بطبيعة الحال إلى حالة الواقفة من عسر أو يسر، فإن كانت من زوجات السلاطين أو الأمراء فهذا يعني أن وقفها سيكون كبيراً. وقد لاحظنا أن ضخامة الوقف وشهرة الواقفة له أثر في وفرة المعلومات عن الوقف، فالمدرسة الشومانية مثلاً كانت المعلومات التي وردت عنها في المصادر قليلة.

وبعض الواقفات اشترطن في المدرس أن يكون من أهل الخير والعفاف والسنة وغير منتسب على شر وبدعة، فهذا العصر كما سبق هو عصر الصراع المذهبي بين السنة والشيعة، والمدارس أصلاً أقيمت بالدرجة الأولى لهذه الغاية.

وكان المذهب الحنفي هو المذهب الذي ساد في المدارس التي أوقفتها النساء مثل المدرسة الخاتونية الجوانية والقصاعية والمرشدية، ثم يأتي بالدرجة الثانية المذهب الشافعي في مدارس مثل المدرسة الأتابكية والشاميتين الجوانية والبرانية والشومانية.

وبعضها كان مشتركاً بين المذهبين الحنفي والشافعي مثل العذراوية والدماغية، ثم يأتي بالدرجة الثالثة المذهب الحنبلي وهو أقلها في مدارس مثل الصالحية والعالمة . أما المذهب المالكي فلم نعثر على أي مدرسة تدرس هذا المذهب.

---

(٣٨٠) بيطار، أمينة، **تاريخ العصر الأيوبي**، دار الطباعة الحديثة، دمشق، ١٩٨١م، ص٢٠٨. وسيشار له لاحقاً: بيطار، تاريخ العصر الأيوبي.

(٣٨١) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٦.

(٣٨٢) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ١١٣.

ونعلل كثرة المدارس الحنفية في هذا العصر لأن هذا المذهب هو مذهب قسم من الأيوبيين – القسم الآخر شافعي – وبعض السلاطين كان بارعاً فيه مثل الملك المعظم عيسى، الذي ذكر أن له كتاب في الدفاع عن أبي حنفية هو "السهم المصيب في الرد على أبي بكر الخطيب"(٣٨٣).

وقد وجدت وظيفة المعيد في بعض المدارس، وكان يخصص له راتب محدد، مثل ما ورد في وقفية بابه خاتون إذ أنها خصصت للمعيد في كل شهر أربعين درهماً(٣٨٤).

وكذلك في وقفية ربيعة خاتون في مدرستها الصاحبة، حيث خصصت للمعيد في كل يوم درهماً – ثلاثون درهما في الشهر"(٣٨٥).

ووظيفة المعيد في تلك العصور تشبه إلى حد كبير وظيفة المعيد في الكليات الجامعية في العصر الحديث، فهو طالب متقدم يساعد المدرس الذي يتبعه في المذهب ومادة التخصص؛ إذ أن وقت المدرس لا يتسع لإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة فيقوم المعيد بذلك(٣٨٦).

كما اشترطت بعض الواقفات ألا يجمع المدرس بينها وبين غيرها، كما في المدرسة الشامية البرانية" وربما كان هذا الأمر لغاية وهي ألا يتشتت جهد المدرس في حال تدريسه بمدرسة أخرى وليعطي كل ما لديه في المدرسة المحددة.

ولم يشترط في طالب العلم الفقر والعوز والحاجة، بل كان التعليم مفتوحاً للجميع دون تمييز بين غني أو فقير، وفي هذا تشجيع للناس ليقبلوا على التعليم، وهذا ما ساهم في ازدهار الحركة العلمية في العصور الإسلامية الوسيطة، إذ كان الوقف مصدر التمويل الوحيد للتعليم بكل متطلباته دون تدخل من جانب الولاة والحكام وأولي الأمر إذ أنه لم ينشأ ديوان حكومي رسمي للتعليم – في مصر– مثلاً – حتى بداية محمد علي باشا"(٣٨٧).

ولم يتوقف الأمر عند فتح باب التعليم للعامة والخاصة دون تمييز بل تعدى ذلك إلى صرف مبالغ نقدية للطلاب فهذه ربيعة خاتون جعلت للطالب في كل يوم نصف درهم – خمسة عشر درهماً في الشهر"(٣٨٨).

---

(٣٨٣) خربوطلي، شكران، **أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية في العصر الأيوبي**، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م، ص٧.

(٣٨٤) T.D. Istanbul, 602, p.172.

(٣٨٥) الموصلي، **الروضة الفيحاء**، ص٣٨٤.

(٣٨٦) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٤٨.

(٣٨٧) عبد الرحمن، **أوقاف الرعاية الصحية في المجتمع الإسلامي**، ص١٢٣.

(٣٨٨) الموصلي، **الروضة الفيحاء**، ص٣٨٤.

ومن الواقفات من فرضت رواتب عينية ونقدية للطلاب، مثل بابه خاتون إذ جعلت المتفقهة ثلاث طبقات: الطبقة الأولى ولها عشرون درهماً شهرياً ورطل خبز يومياً لكل نفر. والطبقة الثانية لكل نفر خمسة عشر درهماً وثلثا رطل خبز، أما الطبقة الثالثة فهم المبتدئين ولكل منهم عشرة دراهم وفي كل يوم ثلثا رطل خبز[٣٨٩].

وكان لبعض المدارس أوقاف كثيرة من أراضٍ وضياع ودكاكين لم تذكر بالاسم عدا عن الأموال، وتكتفي بعض المصادر بالقول وعليها أوقاف كثيرة دون أن تذكرها، فمثلاً الخاتون أرغوان الحافظية التي أوقفت دارها في دمشق على خدامها واشترت بستاناً وجعلت فيه مسجداً وتربة ووقفت عليها أوقافاً كثيرة[٣٩٠]، لكن لم يذكر من هذه الأوقاف سوى بستان بصّارو.

وهناك أوقاف لم تذكر ربما لأن بعضها كان صغيراً، فقد ذكر النعيمي أن العالمة أمة اللطيف لها غير المدرسة المذكورة الكثير من الأملاك والأوقاف[٣٩١]، لكنه لم يذكر شيئاً من هذه الأملاك والأوقاف.

وقد كانت بعض الواقفات يحتفلن باكتمال المدرسة والشروع في إعطاء الدروس فهذه ربيعة خاتون حضرت الدرس الذي ألقاه الشيخ الناصح الحنبلي، وكان حضورها وراء ستر نصب لها[٣٩٢].

وقد جرت العادة في هذا العصر أنه إذا مات الفقيه أو المعيد أو المدرس وكان أبناؤه جديرين بتولي منصبه في المدرسة كان تخصص لهم رواتب من مال الأوقاف، يظهر ذلك من خلال الشروط التي وضعتها الخاتون ست الشام بنت أيوب في مدرستها الشامية الجوانية إذ أنها خصصتها من أجل الفقهاء والمتفقهة الشافعية، وعهدت بالتدريس بالمدرسة المذكورة إلى قاضي القضاة زكي الدين أبي العباس الطاهر أحمد بن محمد القرشي، إن كان حياً، فإن لم يكن حياً فعلى ولده ثم ولد ولده، ثم نسله المنتسبون إليه ممن لهم أهلية التدريس شرط أن يكونوا من أهل الخير والعفاف[٣٩٣].

وهناك من المدارس التي أوقفتها النساء تعد من أعظم المدارس الدمشقية التي أخذت مجداً وسمعة طيبة في العصر الأيوبي ما تلاه من عصور مثل المدرسة الشامية البرانية التي

---

(٣٨٩) T.D. Istanbul, 602, p.172.

(٣٩٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠.

(٣٩١) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١١٢.

(٣٩٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٥٧.

(٣٩٣) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٧.

كانت أكبر مدرسة للشافعية مثلما كانت المدرسة النورية للحنفية والمدرسة العمرية للحنابلة. وعند افتتاح المدرسة وإغلاقها كانت تجري حفلات رسمية يحضرها العلماء والأمراء[٣٩٤].

وقد درس بها وسكنها منذ إنشائها وحتى العصور اللاحقة خيرة المشاهير والأعلام منهم تقي الدين ابن الصلاح الذي كان متميزاً بصناعة الطب بالإضافة إلى تبحره بالعلوم الدينية[٣٩٥]، وكذلك شرف الدين بن زين القضاة ومحمد بن عبد الله بن المرحل الشافعي الذي أتى به من مصر ليتولى التدريس فيها[٣٩٦].

ومن المدارس التي تأثرت بالفتن والاضطرابات المدرسة الصاحبية إذ تعرضت للضرر أثناء فتنة تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م[٣٩٧].

ومن المدارس التي أخذت سمعة طيبة في تلك الفترة المدرسة الدماغية ويظهر ذلك من خلال نسخة توقيع بالتدريس في هذه المدرسة من إنشاء ابن نباته للقاضي جمال الدين أبي الطيب الحسن بن علي الشافعي . وقد ورد في هذه النسخة من الوصف للمدرسة الدماغية ما يعطينا صورة واضحة عن مكانتها وكيف كان ينظر إليها، وأنه لا يختار لها من المدرسين إلا المؤهل لهذه المهمة.

فقد ورد لدى القلقشندي "وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأساً في مدارس العلم وهامة في أعضاء منازل ذوي الحكم والحلم، لا تسمو همتها إلا بكل سامي العمامة، هامي الفضل كالغمامة، سامع اللفظ إلا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامة، كائد للملحد مكرم للطالب ولا كيد لابن الخطيب ولا كرامة – واسطة بين العادلية والأشرفية تليق بمن يكون عِقدُ

كلامه المثمن، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتنا" يعني بيت النسب وبيت المسكن"[٣٩٨].

وكما مرّ سابقاً فإن شهرة الواقعة – بمعنى أن تكون من السلطة الحاكمة – وضخامة الوقف قد وفر لنا معلومات أكثر عن الوقف، وهو بنفس الوقف سيساهم في بقاء الوقف أطول مدة ممكنة.

([٣٩٤]) العلبي، **خطط دمشق**، ص١٢٥.

([٣٩٥]) شميساني، **مدارس دمشق**، ص١١١.

([٣٩٦]) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٦، ص١٠٣.

([٣٩٧]) العلبي، **خطط دمشق**، ص٢٣٦-٢٣٧.

([٣٩٨]) القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ج١٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٠، ص٣٦٤. وسيشار له لاحقاً: القلقشندي، صبح الأعشى.

فهناك من المدارس من اندرست تماماً ولم يبقَ لها أثر ومنها من ستحتفظ بشيء من بنائها، فمن المدارس التي اندرست المدرسة العالمة والمدرسة الشومانية والمدرسة الميطورية والمدرسة القصاعية، وممن بقيت المدرسة الصاحبة والمدرسة الفرخشاهيه والمدرسة المارداني‌ة.

ومنها من تحولت إلى مسجد مثل المدرسة الأتابكية إذ حول جانب منها إلى مسجد يسميه الناس التابتية[٣٩٩]، ومنها من تحولت إلى دور للسكنى كالمدرستين الدماغية والشومانية[٤٠٠].

ودرج في كثير من الأحيان على أن تلحق بالمدرسة قبة تدفن فيها الواقفة صاحبة المدرسة أو يبنى لها قبر في أحد جوانبها، كما كانت بعض الواقفات يعملن على وقف دروس قرآنية في الترب[٤٠١] طلباً للمغفرة والرحمة فكان من المستحب دفن صاحبة المدرسة بعد وفاتها في مدرستها، لأنها مكان للدرس وذكر الله تعالى إلى جانب كونها مكان عبادة وتعبد، ومما لوحظ أن المدارس التي تحوي أضرحة لواقفيها تحافظ على شكلها الخارجي نوعاً ما مقارنة بغيرها.

أما بالنسبة لشكل المدرسة وبنائها فإن بعض الواقفات كن يجتهدن في ذلك ويبالغن في إحكام بنائها، وتوفير كل ما يلزم لها، فهذه ربيعة خاتون قد شرعت في بناء مدرستها الصاحبة بناءً محكماً فلم تنته المدرسة وما بقي معها إلا اليسير فاشترت به وقفاً يسيراً[٤٠٢]، بمعنى أنها دعمت البناء أكثر من دعمها للوقف.

وقد أورد ابن طولون في كتابه "القلائد الجوهرية" وصفاً دقيقاً لها فقال: هذه المدرسة من أحاسن المدارس هيئتها هيئة قاعة متسعة، بإيوان قبلي به شباكان مطلان على جنينة شمالي نهر يزيد وبه قاعتان شرقية وغربية وإيوان شرقي. وإيوان آخر مثله غربي به قبر، ولصيق هذا الإيوان الشرقي باب ينفذ إلى سلم بأسفله بيت الماء بماء جار. وقبالة هذا الباب لصيق الإيوان الغربي التربة ولها عدة شبابيك بعضها إلى صحن المدرسة هذه، وبعضها إلى الطريق، وشمالي هذا الصحن شباكان مطلان على الطريق المذكور بينهما باب المدرسة وهو باب معظم محدد بواجهة متقنة، وفي أعلى هذه المدرسة عدة خلاوي فك بعضها في هذه الأيام"[٤٠٣].

([٣٩٩]) ابن عبد الهادي، **المساجد**، ص٢٠٥.

([٤٠٠]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٩٧، ١١٦.

([٤٠١]) نذكر هنا مثلاً بنات الملك الكامل الثلاث اللواتي عمدن إلى وقف قراء على تربة والدهن الملك الكامل. النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص٢٧٧.

([٤٠٢]) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٤٦.

([٤٠٣]) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص٢٤٦.

كما عمدت بعض الواقفات إلى نقش كتاب الوقف على باب المدرسة، كما عند خديجة خاتون واقفة المدرسة المرشدية كما مرّ سابقاً.

ومن المعروف أن كل مدرسة كان يحلق بها مكتبة عامرة بالكتب النفيسة يستخدمها الطلاب والأساتذة، وكانت الكتب مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة لسهولة الوصول إليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكتبات في عصورنا"[٤٠٤]. وهذا الأمر ينطبق على مدارس النساء وغيرها كما أن المكتبات لم تقتصر على المدارس بل ألحقت بالجوامع مكتبات كبيرة أيضاً[٤٠٥].

أما بالنسبة للعلماء فهم ركن أساسي في العملية التعليمية ولا يمكن تصور الحياة التعليمية مستمرة ومزدهرة بدونهم، والمصادر المعنية بهذا الأمر مثل النعيمي تذكر بعد كل مدرسة أسماء أبرز علمائها وأبرز إنجازاتهم.

وقد بين لنا بدران في كتابه "منادمة الأطلال" عملية التدريس، إذ يجلس المدرس ويحيط به الفقهاء والعلماء فيذكر مسألة ويأخذ في تفصيلها وبيان دلائلها، ويشاركه العلماء في البحث على طريقة فن الجدل، ويتكلم الواحد منهم بما عنده وتطول ذيول المناظرة، ويأخذ كل واحد بالانتصار لقول إمامه. كما كان يسمح للغرباء في المناظرة والمجادلة، وكان المدرس يجلس المتميزين على يمينه وشماله ليكونوا عوناً له إن لم يستحضر الجواب[٤٠٦][٤٠٧].

ولقد جرت العادة عند الواقفات أن يصفن المدرس من حيث مذهبه وأنه غير منتسب لبدعة وأن يكون من أهل الخير والصلاح وحسن الطريقة، هذا في عهد الواقفات أما لاحقاً في العهد المملوكي، فقد ظهر واضحاً في نسخ التوقيع التي صدرت للتدريس ببعض هذه المدارس أن هذه المهمة لا توكل إلا لمن تؤهله أخلاقه وسمعته وعلمه للقيام بمسؤولية هذا المنصب، حيث يتم تعيينه بأمر سلطاني لينشر علمه بين الطلاب ويكون في ذلك قدوة لعلماء عصره.

([٤٠٤]) بيطار، **تاريخ العصر الأيوبي**، ص٢٠٦.

([٤٠٥]) المرجع نفسه، ص٢٠٦.

([٤٠٦]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٥.

([٤٠٧]) ينتقد بدران الوضع الذي آلت إليه عملية التدريس في وقته، شكلاً ومضموناً فالمدرس ما عاد كما كان في السابق إذ أنه لا يحفظ إلا القليل من الكلمات عن ظهر قلبه. فإن كانت ساعة الدرس جلس العلماء – كما يشير على الأمراء هنا– حوله. فيقرأ ثم يعيد المعيد ما قرأه، حتى السؤال ما عاد متاحاً، فإن سأل أحد الغرباء سؤالاً انتهره الحاضرون وأسكتوه، فهو يتحسر على ما آل إليه العلم في زمنه.

ومن النسخ التوقيع للمدرسين في هذه المدارس لدينا نسخة توقيع تدريس المدرسة القصاعية كتبت لفخر الدين أحمد بن الفصيح الحنفي المقري[٤٠٨](ت ٧٥٥هـ/١٣٥٤م)، وهو كما تصفه نسخة التوقيع صاحب علم لا يكاد يوجد له شقيق وإن كان منسوباً إلى "النعمان" وإمام قراءات تثبت له فيها على "أبي علي" الحجة، وتوضحت ببيانه المحجة، وتعين محله الأثير، وروى الطالب من علمه عن "نافع" ومن ذهنه في الفوائد عن "ابن كثير" وأنه فخر الحنفية القائم في السمعة مقام "رازيها" المطل بمنسر قلمه على المعاني إطلال بازيها "الأكمل" الذي له من علوم صدره خزانه، "الصّدر" الذي كل صدر يشهد له بعلو المكانة[٤٠٩].

كما تضمنت بعض نسخ التوقيع توجيهات للمدرس، كما في نسخة القاضي جمال الدين أبو الطيب الحسن بن علي الشافعي، بتدريس المدرسة الدماغية، وفيها "ولينصر مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه فإن قومه الأنصار، وليخفض جناحه للطلبة فطالما خفضت الملائكة أجنحتها ليصير فلا عجب أن صار". ويتابع الكتاب توجيه الصنائح "وليفد وافديه وهو قاعد أضعاف ما أفادهم صاحب المكان وهو واقف، وتقوى الله عز وجل أولى ما طالعه في سره وجهره من "عوارف المعارف"[٤١٠].

ولم تحدد أي من الواقفات مدرساً بعينه باستثناء ست الشام بنت أيوب في مدرستها الشامية الجوانية إذ عينت المدرس الشافعي قاضي القضاة زكي الدين أبي العباس الطاهر أحمد ابن محمد بن علي القرشي إن كان حياً، وإن لم يكن فولده ونسله ممن له أهلية التدريس[٤١١].

ومن خلال اطلاعنا على قائمة العلماء في مدارس النساء في العصر الأيوبي نجد في كل مدرسة نخبة من العلماء الذين أغنوا الحياة العلمية في دمشق في هذا العصر، حتى أن بعض المؤرخين مثل – نيكيتا إيليسيف– وصف دمشق بأنها أصبحت ثانيةً (مرة أخرى بعد العهد الأموي) مركزاً سياسياً وعلمياً ودينياً إضافة إلى ازدهارها بالتجارة والصناعة[٤١٢].

---

(٤٠٨) هو أحمد بن علي بن أحمد الكوفي البغدادي الحنفي (ت ٧٥٥هـ/١٣٥٤م)، الشهير بابن الفصيح، مات بدمشق وقد قارب الثمانين سنة، وكان إماماً عالماً بارعاً في فنون، ناظماً ناثراً نظم "الكنز في الفقه"، و"السراجية في الفرائض"، وقدم إلى دمشق وتصدى للإفتاء والتدريس والإقراء إلى أن مات بها. راجع: ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣٢.

(٤٠٩) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص٣٧٢.

(٤١٠) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص ٣٦٥.

(٤١١) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٠٢.

(٤١٢) غانم، عماد الدين، المدرسة الطبية الدمشقية، **مجلة البحوث التاريخية الليبية**، ع١، ١٩٨٥م، ص ١٥٥.

ومن أبرز العلماء الذين برزوا كمال الدين عمر بن بدار التفليسي (٦٠٢-٦٧٢هـ/١٢٠٥-١٢٧٣م)، مدرس الدماغية، الذي تفقه وبرع في المذهب، وكانت نيابته في القضاء عن صدر الدين أحمد بن سني الدولة مدة خمس عشرة سنة ثم تقلد القضاء بدمشق سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، واستقل بالحكم بدمشق وكان عادلاً فاضلاً أحسن إلى الناس[٤١٣].

ومن العلماء البارزين الناصح الحنبلي (٥٥٤-٦٣٤هـ/ ١١٥٩-١٢٣٦م) الذي ينتسب إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهو أول من درس بالمدرسة الصاحبية في سنة ثمان وعشرون وستمائة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م[٤١٤]، وكان يوم تدريسه مشهوداً إذ حضرت الواقفة من وراء الستر[٤١٥].

وقد حضر فتح بيت المقدس مع السلطان صلاح الدين، وانتهت إليه رئاسة المذهب بعد الشيخ موفق الدين عبد الله بن قدامة، ومن مصنفاته "أسباب الحديث" في مجلدين وكتاب "الاستفسار بمن لقيهم من صالحي العباد في البلاد" وكتاب "الإنجاد في الجهاد"[٤١٦].

ومنهم مجد الدين أبي جرادة ٦١٤-٦٧٧هـ/١٢١٧-١٢٧٨م مدرس الخاتونية الجوانية، وقد كان صدراً مهيباً وافر الحشمة عالي الهمة والرتبة عارفاً بالمذهب والأدب مبالغاً في التجمل والترفع[٤١٧]، وهو أول من درس بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة وحضر السلطان درسه وشجع بحثه ومناظرته، وولي الخطابة بالجامع الحاكمي مدة بمصر"[٤١٨].

وإن كثيراً من العلماء من كان يدرس في أكثر من مدرسة فهذا شمس الدين الحريري ٦٥٣-٧٢٨هـ/ ١٢٥٥-١٣٢٧م، قد ولي تدريس المدرسة الخاتونية البرانية[٤١٩] في سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، ودرس أيضاً بالمدرسة الفرخشاهية قديماً في سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م، وفي سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م درس بالظاهرية بدمشق عوضاً عن القاضي شمس الدين الملطي، ودرس بالمدرسة

([٤١٣]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢٦٧. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص٣٣٨.

([٤١٤]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٥٧.

([٤١٥]) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٢١٩-٢٢٠.

([٤١٦]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٣٨.

([٤١٧]) لبن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٣٥٨.

([٤١٨]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥١٣.

([٤١٩]) المدرسة الخاتونية البرانية: أوقفتها الست خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دقاق (ت ٥٥٧هـ) على الأحناف، عند مكان يسمى صنعاء الشام المطل على وادي الشقراء وهو مشهور بدمشق. راجع: بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٦٧، ١٦٩.

المرشدية والمدرسة الصادرية، وولي بعدة مدارس أخرى، وتوفي بمصر سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م[٤٢٠].

بقي أن نقول أن هذه المدارس لم تكن حكراً على الدمشقيين أو أهل الشام بل أنها استقطبت علماء من خارج هذه المنطقة، وأقرب مثال على هذا تقي الدين السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ/ ١٢٨٤-١٣٥٥م) الذي ولد بسبك من أعمال المنوفية، وتفقه في مصر ودرس في م دارسها مثل المنصورية والهكارية والسيفية، ودرس بدمشق بالغزالية والعادلية والأتابكية والمسرورية والشامية البرانية، وفي آخر عصره رجع إلى مصر بعد أن استعفى من قضاء الشام وتوفي سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م[٤٢١].

مما سبق نستطيع أن نتبين أن دمشق في عهد الأيوبيين شهدت نشاطاً تعليمياً ثقافياً واسعاً، ظهر ذلك جلياً من خلال كثرة المدارس والمدرسين وجزالة الأوقاف الموقفة عليهم من الرجال والنساء على حد سواء.

وإذا تابعنا الحديث عن العلماء فإننا سنجد في كل مدرسة من المدارس السابقة زمرة من العلماء والفقهاء الذين أغنوا الحياة العلمية بمؤلفاتهم ودروسهم التي كانوا يلقونها وإننا سنشير إلى أكثرهم شهرة وإنتاجاً علمياً.

فهذا عبد الله الأذرعي (٥٩٩-٦٧٣هـ/ ١٢٠٢-١٢٧٤م) وهو قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله بن جابر الأذرعي الحنفي، تفقه على الشيخ رشيد الدين سعيد بن علي البصروي، وقاضي القضاة صدر الدين علي بن أبي القاسم البصروي، واتفق أن والده كان حنبلي المذهب، ورحل إليه على بعلبك وأقرأ ولده عبد الله المشار إليه القرآن على الشيخ الفقيه، فأشار الشيخ الفقيه بأن يشغله على مذهب الإمام أبي حنيفة، فاشتغل وحفظ القدوري ورحل إلى دمشق فتفقه بها حتى صار رئيس الحنفية، ودرس بالخاتونية العصمية والمرشدية، وهو أول من درس بها "المرشدية" وباشر نيابة القضاة بدمشق مدة"[٤٢٢].

كما تذكر المصادر من علماء المدرسة العذراوية محي الدين بن الزكي ٥٩٦-٦٦٨هـ/ ١١٩٩-١٢٦٩م وهو أبو المعالي القرشي الشافعي محي الدين أبو الفضل يحيى، روى عن حنبل وابن طبرزد، وتفقه على الفخر بن عساكر، ولي قضاء دمشق مرتين، وكان صدراً معظماً

---

(٤٢٠) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٦، ص ٨٨.

(٤٢١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٤٢٢) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص ٣٢٧. ابن طولون، **القلائد**، ج٢، ص ٢٣٠-٢٣١.

شيعياً يفضل علي بن أبي طالب عليه السلام على عثمان، مع كونه ادعى نسباً إلى عثمان أكرمه هولاكو وولاه قضاء دمشق[٤٢٣].

ومن علماء المدرسة العالمة شمس الدين بن هامل (٦٠٣-٦٧١هـ/ ١٢٠٦-١٢٧٢م) وهو محمد بن عبد المنعم بن هامل الحراني، سمع ابن الزبيدي وابن الليثي والأربلي والهمداني، وابن رواحة، والسخاوي والقطيعي وعمر بن كرم، وعني بالحديث عناية جليلة وكتب الكثير وتعب وحصل روى عنه ابن الخباز والدمياطي وابن أبي الفتح وابن العطار، ووقف أجزاءه بالضيائية، وكان شيخ الحديث بالمدرسة العالمة[٤٢٤].

كما يذكر من العلماء البارزين صفي الدين الهندي الأرموي ٦٤٤-٧١٥هـ/ ١٢٤٦-١٣١٥م في المدرسة الأتابكية الذي كان ميلاده بالهند، وكان جده لأمه فاضلاً فقرأ عليه، وخرج من دهلي في شهر رجب سنة سبع وستين، فحج وجاور ثلاثة أشهر ثم دخل اليمن فأعطاه ملكها المظفر أربعمائة دينار، ثم دخل مصر سنة إحدى وسبعين وأقام بها أربع سنين. ثم سافر إلى الروم على طريق أنطاكية، ثم قدم دمشق في سنة خمس وثمانين فأقام بها واستوطنها، وولي بها مشيخة الشيوخ، ودرس بها بالظاهرية والجوانية والرواحية والدولعية بالإضافة إلى الأتابكية[٤٢٥].

ومن العلماء أصحاب الإنتاج العلمي يذكر تاج الدين السعدي ٦٥٠-٧٣٢هـ/ ١٢٥٢-١٣٣١م، مدرس الصاحبية وهو الإمام تاج الدين أبو القاسم عبد الغفار بن محمد السعدي الشافعي سمع بن غرون والنجيب وعدة، وخرج التساعيات وأربعين مسلسلات، وطلب وكتب الكثير وتميز وأتقن، وولي مشيخة الصاحبة، وأفتى ونسخ نحواً من خمسمائة مجلد وخرج لشيوخ[٤٢٦]، وخرج لنفسه معجماً في ثلاثة مجلدات وتوفي في مصر[٤٢٧].

ومن العلماء البارزين لدينا تاج الدين البقاعي الفاري (٧٦٧-٨٢٤هـ/ ١٣٦٥-١٤٢١م)، مدرس المدرسة الشامية البرانية وهو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن شهادب الدين الزهري، أخذ عن والده وعن الشيخ نجم الدين بن الجابي، درس بالعادلية الصغرى في حياة والده وناب عنه في القضاء، ونزله له والده عند موته عن نصف تدريس الشامية ولأخيه جمال الدين، تصدى للإفتاء وكان يستحضر التمييز إلى آخر وقت وذهنه جيد[٤٢٨].

([٤٢٣]) الذهبي، **ذيول العبر**، ج٣، ص ٣١٨-٣١٩.

([٤٢٤]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص٥٠.

([٤٢٥]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص١٣٠-١٣١.

([٤٢٦]) الذهبي، ذوي العبر، ج٤، ص٩٢.

([٤٢٧]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص١٦٦.

([٤٢٨]) العسقلاني، الإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) **إنباء الغمر بأناء العمر**، ط٢، ج٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص٤٤٢.

ومن علماء الشامية الجوانية أمين الدين سالم (٦٤٥-٧٢٦هـ/١٢٤٧-١٣٢٥م) وهو سالم بن أبي الدر الشيخ أمين الدين مدرس الشامية الجوانية وكان إمام مسجد الفسقار، قرأ على المراكشي مدة، ونسخ بعض مسموعاته ورتب صحيح ابن حيان[٤٢٩]. لازم الشيخ محي الدين النفراوي وانتفع به، فلما توفي أخذ عن شرف الدين المقدسي وزين الدين الفارقي، وأم بمسجد بن هشام، ودرس بالشامية الجوانية، انتزعها من الشيخ صدر الدين بن الوكيل[٤٣٠].

ومن علماء المدرسة القصاعية شرف الدين بن التباني (٧٦٠-٨٢٧هـ/ ١٣٥٨-١٤٢٣م) وهو شرف الدين يعقوب بن التباني الحنفي المصري، نشأ بالقاهرة وتفقه بوالده وغيره وبرع في الفقه والأصلين والعربية والمعاني والبيان. وأفتى ودرس سنين، وولي وكالة بيت المال ونظر الكسوة ومشيخة خانقاه شيخون، وكان ذا همة عالية ومكارم وبر وإيثار وصدقة وحرمة في الدولة وكلمة مسموعة وصلة بالأمراء والأكابر[٤٣١].

وكذلك الخانقاه القصاعية وذكر فيها محمد بن أبي الفتح البعلي الدمشقي (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، وهو الفقيه المحدث سمع من اليونيني وابن عبد الهادي، عني بالحديث وبرع في الفقه وأفتى، وصنف كتباً منها "الفاخر في شرح جمل عبد القاهر" وشرح ألفية ابن مالك وكذلك المطلع على أبواب المقنع[٤٣٢].

ومن علماء الخاتونية الجوانية حسام الدين الرازي (٦٣١-٦٩٩هـ/ ١٢٣٣-١٢٩٩م) وهو حسام الدين أبو الفضائل تاج الدين أبي المفاخر الرازي، ولي ملطية أكثر من عشرين سنة وخرج إلى الشام سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، وامتدت عليه أيامه إلى أن تسلطن حسام الدين لاجين فسار غليه سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، فأقبل عليه وولاه القضاة بالديار المصرية وولي ابنه جلال الدين مكانه بدمشق، وبقي معظماً وافر الحرمة إلى أن قتل السلطان حسام وهو عنده، فلما زالت دولة حسام الدين قدم دمشق على مناصبه وقضائه بدمشق، وعزل ولده، وكان مجمع الفضائل كثير المكارم يتودد إلى الناسن له أدب وشعر وفيه خير ومروءة وحشمة[٤٣٣].

ومن علماء المدرسة الفروخشاهية شمس الدين بن الحريري (٦٥٣-٧٢٨هـ/ ١٢٥٥-١٣٢٧م) وهو شمس الدين محمد بن عثمان الأنصاري المعروف بابن الحريري، قرأ الفقه على الشيخ عماد الدين بن الشماع وعلى رشيد الدين بن البصروي.

([٤٢٩]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص١٣٠.

([٤٣٠]) النعيمي، **الدراس**، ج١، ص٣٠٦.

([٤٣١]) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٧، ص١٨٣-١٨٤.

([٤٣٢]) بدران، **منادمة الأطلال**، ص٢٨٥.

([٤٣٣]) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١١، ص٣٩٧.

شرح الهداية وعلق فوائد فقهية، ولي القضاء بدمشق سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، واستناب أقضى القضاة شمس الدين بن العز ودرس بالفروخشاهية أيضاً سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م، ودرس بالظاهرية عوضاً عن القاضي شمس الدين الملطي ودرس بالمدرسة الرشيدية والصادرية توفي بمصر[٤٣٤].

إلى جانب الآثار التعليمية فقد كان لأوقاف النساء في هذا العصر آثار اجتماعية واقتصادية تظهر فيما قدمته الخوانق والربط والمدارس. وهذه الخوانق والربط التي لم تتوفر عنها معلومات كافية قدمت للمجتمع خدمات كثيرة. ونستطيع أن نؤكد أنها قدمت دوراً اجتماعياً باقتدار في ذلك الوقت كما أدت دوراً تعليمياً إلى جانب المدارس، وهذا واضح من خلال تعيين العلماء. فقد عين الشيخ البعلي الدمشقي للخانقاه القصاعية، كما تولى مشيخة الخانقاه الحسامية جماعة منهم شرف الدين نعمان.

ومن المحتمل أن صغر حجم الخوانق والربط وقلة ما أوقف عليها وسرعة خرابها، وعدم وجود خانقاه أو رباط ضخم، كل هذا جعل المعلومات الواردة عنها قليلة إلا أن بعض الوقفيات التي توفرت لدينا على بعض المدارس مثل وقفية ست الشام ووقفية عزيزة خاتون وبابه خاتون وزهرة خاتون وبعض الإشارات الواردة في المصادر أعطتنا إشارات استطعنا أن نتبين مساهمة المرأة في الجانب الاجتماعي.

ونستطيع القول أن المدرسة في العهد الأيوبي شكلت الركن الأهم في التآلف المجتمعي، لأنها تستند إلى مذهب محدد، ولوجودها في مكان محدد من المحلات أو الأحياء وهذا ما ينطبق على المدارس التي أسستها النساء أيضاً، فالمدرسة هي النقطة المركزية في توحيد أبناء المذهب المنتسبين إليها، وكانت أهدافها التعليم بالدرجة الأولى وتثقيف المجتمع أيضاً فكان ينتسب إليها الأغنياء والفقراء على حد سواء.

وقد تخرج من هذه المدارس القضاة والعلماء ورجال الإدارة من مختلف طبقات المجتمع مما يعني أن المدرسة أدت إلى ما يسمى بالحراك الاجتماعي.

من الناحية الاقتصادية تقاضى المدرسون والفقهاء والنظار رواتب جيدة أمنت لهم مستوى لائق من العيش، هذا بالإضافة إلى ما وفره الوقف من أعطيات عينية وهؤلاء الذين شملهم وقف المرأة بمنافعه لم يقتصر عليهم وحدهم فقد تعدى إلى الطلاب والفقراء والمساكين والعتقاء.

([٤٣٤]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٦٢.

ومن ناحية أخرى نجد أن الاستثمار لتمويل الوقف تركز بشكل كبير في الريف ليشمل القرى التي كثر فيها قطع الأراضي والمزارع والبساتين والكروم ومعاصر الزيت والطواحين، ويمكننا القول أن تركز عين الوقف في الريف ساهم بإحياء القرى وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها، فمثلاً قامت ربيعة خاتون باستثمار قرية جبة عسال[٤٣٥]، للصرف على أغراض الوقف كما قامت خديجة خاتون باستثمار حصة من بستان الكليب وحصة من طاحون الطرب وحصة من قرية تقي الدين وحصة من قرية الطرة[٤٣٦]، للغرض ذاته. وبالتأكيد فإن الاستثمار في هذه القرى سيساهم باستمرار إحيائها للصرف على أغراض الوقف وعدم خرابها كما يساهم بتوفير للعمل ويدفع للاستقرار السكاني والهجرة إلى تلك القرى.

كما شملت الأوقاف النشاطات الاقتصادية كالحمامات والدور الحوانيت والخانات فقد أوقفت بابه خاتون حمام مجاور للمدرسة[٤٣٧]، وأوقفت الخاتون أرغوان الحافظية دارها التي تعرف بدار الإبراهيمي بدمشق[٤٣٨]، وأوقفت خديجة خاتون داراً بجبل الصالحية[٤٣٩].

([٤٣٥]) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص٢٤٥.

([٤٣٦]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٧٦.

([٤٣٧]) T.D. **Istanbul**. **602**, p.172.

([٤٣٨]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠.

([٤٣٩]) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٥٧٦.

الفصل الخامس

معطيات حضارية عن دمشق من وقفيات النساء

الفصل الخامس

معطيات حضارية عن دمشق من وقفيات النساء

تعتبر الوقفيات مصدراً مهماً للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والحضاري، فهي ليست نصوص جامدة تحصر ما أوقفه صاحب الوقف وسبل صرفها بل هي مخطط عمل ومنهاج تنظيم لمشاريع ضخمة لا يترك شيء منها للصدفة أو الاجتهاد العشوائي، بل إننا نجد كل شاردة وواردة مذكورة فيها، ومن يتمعن في تلك الوقفيات يلاحظ من قراءتها أنه يقرأ نظم وإجراءات عمل لمؤسسة حديثة، وهذه النظم والإجراءات هي التي تكفل للوقف قدراً من الاستقرار والاستمرار.

وعلى الرغم من أهمية الوقفيات إلا أنه وللأسف فقدت معظم وقفيات النساء الواردات في هذه الرسالة ولم يبق منها إلا نتف مذكورة هنا وهناك. وقد تمكنا من الوصول إلى بعض الوقفيات غير المعروفة المحفوظة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء[٤٤٠]، وهي أربع وقفيات جديدة، لذا سيعتمد هذا الفصل على وقفيات النساء هذه، مع العلم أن بعض الوقفيات الأخرى وردت في المصادر كـ"الدارس" و"منادمة الأطلال" و"فتاوى السبكي".

---

(٤٤٠) للتوسع حول هذا الأرشيف انظر:

– أقطاش، نجاتي، **الأرشيف العثماني**، ترجمة: صالح سعداوي صالح، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون بإسطنبول ومركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٦م.

لمحة عن الوقفيات الأربعة:

الوقفية الأولى: وقفية الطواشي[٤٤١] على المدرسة الشامية البرانية[٤٤٢]، وتحتوي هذه الوقفية على ثلاثين سطراً، ومؤرخة في سنة عشرة وستمائة للهجرة ٦١٠هـ/١٢١٣م.

الثانية: وقفية عزيزة الدين أقجة خاتون على المدرسة المارداني‌ة، وتحتوي على ثمانية عشر سطراً، ومؤرخة في سنة سبع وعشرين وستمائة للهجرة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م.

الثالثة، وقفية بابه خاتون بنت أسد الدين شيركوه، على المدرسة العادلية الصغرى، وتحتوي على ثمان وعشرون سطراً، ومؤرخة في سنة خمس وخمسين وستمائة للهجرة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م.

الرابعة، وقفية زهرة خاتون على المدرسة العادلية الصغرى أيضاً، وتحتوي على سبعة عشر سطراً، ومؤرخة في سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ٦٥٦هـ.

ويذكر أن الوقفيات عادةً تحمل تاريخين الأول يسمى تاريخ الوقفية والثاني يسمى تاريخ تسجيل الوقفية، إذ أنه بعد دخول العثمانيين قاموا بإعادة تسجيل الوقفيات المسجلة في العهود السابقة "كالأيوبي والمملوكي"، وكثير من الوقفيات المسجلة لا يعود تاريخ تسجيلها إلى تاريخ بدء العمل بالوقفية، وإنما إلى إعادة تقييدها بالدفتر، وهذا ما أدى إلى الزيادة في عدد الوقفيات في العهد العثماني[٤٤٣]. فوقفية عزيزة الدين أقجة خاتون مثلاً مؤرخة عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وتاريخ تسجيل الوقفية عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م أي أنها مسجلة في بداية الحكم العثماني.

([٤٤١]) اعتمدنا وقفية الطواشي مع الوقفيات الأخرى، لأن الطواشي كان يتولى خدمة ست الشام وهي التي عهدت إليه ببناء هذه المدرسة. راجع: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٨٤.

([٤٤٢]) وقفية ست الشام على المدرسة الشامية الجوانية منشورة في "الدارس" للنعيمي و"فتاوى السبكي".

([٤٤٣]) الشيخ خليل، أسماء رمضان، وقف المرأة في لواء دمشق في القرن العاشر الهجري، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م، ص٣.

أوصاف عامة للوقفيات:

يمكننا القول بأن هذه الحجج الوقفية مكتوبة بخط عادي (النسخ) مقروء من خطوط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، يمتاز بالبساطة والبعد عن التعقيد.

وكما في الحجج الوقفية المعتادة لا نجد بين ثناياها نقطاً أو فواصلاً بين العبارات، فالسطور متوالية ومتلاحقة دون نقطة أو فاصلة، وهذا الشيء مألوف في الحجج لكي لا يحصل تزوير بإضافة كلمات إن وقعت الوثيقة بيد أحدهم.

وتبدأ الحجة بكلمة "وقف" ويلاحظ أنها تأخذ السطر الأول كاملاً، وتنهي الوثيقة بذكر السنة التي كتبت فيها الوقفية، دون ذكر الشهر، وتختم بذكر ما أوقف على المدرسة من عقارات مثل الحمامات والطواحين والمزارع والقرى.

وبعض الوقفيات نجد فيها أخطاء إملائية. مثل كلمة "حلوى" إذ أنها كتبت بألف ممدودة "حلوا" كما في وقفية زهرة خاتون، ومثل كلمة "ابن" حيث أنها كتبت دون أن تحذف الألف مع أنها جاءت بين علمين "أيوب ابن شادي" في وقفية ست الشام.

أما كتابة الهمزة والعدد فوجدناهما صحيحان ولا أخطاء فيهما، إلا أن الهمزة التي في وسط الكلمة تقلب إلى ياء في بعض الأحيان، فمثلاً "مائة" تكتب "ماية" و"سائر" تكتب "ساير".

وبعض الكلمات جاءت مثل الرسم القرآني مثل كلمة "صلاة" كتبت "صلوٰ ة" وكلمة "حياتها" كتبت بهذا الشكل"حيواتها".

إلا أن ما أوقف على المدارس من قرى ومزارع وطواحين وغيرها كتبت بخط غير واضح، حتى النقط سقطت أحياناً، كما استعملت الاختصارات مثل "قيراط" كتبت اختصاراً "ط".

الأوزان والمكاييل والمقاييس:

تعتبر الوقفيات مصدراً مهماً للتعرف على الأوزان والمكاييل والمقاييس المستعملة في مختلف الأزمنة والأمكنة. وتأتي أهمية هذه الوقفيات في هذا المجال من حرصها على تحديد كل شيء منعاً للالتباس ودفعاً لأي خلاف أو تلاعب بعد أن تتوفى الواقفة.

فقد استعملت الوقفيات "الرطل" لوزن الخبز كما يظهر جلياً في كل الوقفيات الموجودة، "ومن الخبز ثلاثون رطلاً"(٤٤٤)، وكذلك استعمل الرطل لوزن الشمع والصابون والزيت، "وفي كل شهر خمسة أرطال زيت يسرج للقاعة"(٤٤٥).

أما الرطل الذي استعمل فهو الرطل الدمشقي الذي كان يساوي دائماً ٦٠٠٠ درهم(٤٤٦)، وقد توصل هنتس في كتابه "المكاييل والأوزان الإسلامية" إلى أن زنة الرطل الواحد تتراوح بين ١.٨٧ كغم و١.٨٤ كغم، أي أنه كان يساوي في المعدل ١.٨٥ كغم بالضبط(٤٤٧).

وتجدر الإشارة إلى أن الرطل الدمشقي يختلف عن الرطل الحلبي الذي كان حتى أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يقدر بـ ٢.٢٧٣ كغم(٤٤٨).

مما يعني أن كل بلد له خصوصية في أوزانه، وإن أخذنا حالة مدرس كما في وقفية عزيزة الدين سنجد أنه يحصل في كل شهر على ٥٥.٥ كغم خبز تقريباً.

كذلك نجد أن الوقفيات تستعمل "الأوقية"، "وفي كل يوم من شهر رمضان أوقيتين لحماً أو قيمتهما"(٤٤٩).

"ولكل واحد من الفقهاء والمتفقهة في كل ليلة ثلث وقية زيت"(٤٥٠).

وهذا يعطينا إشارة واضحة إلى أن اللحم والزيت مثلاً كان سعرهما مرتفعاً في ذلك العصر وإلا لما استعملت الأوقية لوزنه. وكانت الأوقية الدمشقية تساوي ٢/١ من الرطل أو ما يعادل ١٥٤.١٦٦غم(٤٥١).

---

(٤٤٤) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٤٤٥) T.D. Istanbul.393.p.136.

(٤٤٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ١٨١.

(٤٤٧) فالتر هنتس، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص ٣٣ وسيشار له لاحقاً: هنتس، المكاييل.

(٤٤٨) هنتس، **المكاييل**، ص٣٤٠.

(٤٤٩) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٤٥٠) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٤٥١) هنتس، **المكاييل**، ص٢٠.

ويشار إلى أن الأرطال والأواقي تتخذ من الحديد وتعيّر على الصنج والطيارة ولا تتخذ من الحجارة[٤٥٢].

كما نجد الإشارة إلى "المثقال"، "ولإمام حنفي المذهب من الفضة في كل شهر عشرين مثقالاً"[٤٥٣]. وما دام أن مثقال الفضة = ٢٤/١ من المثقال.

وقيراط الفضة يساوي ١.٨٦غم[٤٥٤]، فإن المثقال يساوي تقريباً ٤.٤٦٤غم وإن عيار المثقال والدرهم لوزن البضاعة يختلف اختلافاً جوهرياً عن عيارها لوزن النقود[٤٥٥].

وكذلك وجدت الغرارة لكيل الحبوب مثل الحنطة والشعير "ومن الحنطة والشعير غرارة واحدة وثمانية أكيال"[٤٥٦]، "وللمعيد في كل شهر أربعين درهماً ومن القمح ثلث غرارير"[٤٥٧].

والغرارة هي مكيال دمشقي للحنطة وتعني الغرارة حرفياً "العدل من صوف أو شعر" وهي تتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً دمشقياً[٤٥٨]، وعلى هذا يكون وزن الغرارة حوالي ٢٠٤.٥كغم "قمح" أو حوالي ٢٦٥ لتراً[٤٥٩].

ونجد أيضاً أن الوقفيات تعتمد مصطلح "القيراط"[٤٦٠] إما داخل نص الوقفية أو اختصاراً بحرف "ط" فيما أوقف على المدرسة من مزارع.

"ونصف الحصة من بيت رامه ومزارعها وآلات معصرتها بعد وفاة الخاتون زهرا وهي عشرة قراريط"[٤٦١]، "طاحون عند باب سلامة ١٣ ط"[٤٦٢].

والقيراط هو مقياس مساحة مصري يصل إلى ١.٧٥م^{٢} [٤٦٣].

([٤٥٢]) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠، ص١٩ وسيشار له لاحقاً: الشيزري، نهاية الرتبة.

([٤٥٣]) T.D. Istanbul.602.p.61.

([٤٥٤]) هنتس، **المكاييل**، ص١٠.

([٤٥٥]) هنتس، **المكاييل**، ص١١.

([٤٥٦]) T.D. Istanbul.393.p.102.

([٤٥٧]) T.D. Istanbul.602.p.172.

([٤٥٨]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص١٨١.

([٤٥٩]) هنتس، **المكاييل**، ص٦٤.

([٤٦٠]) القيراط: يقدر بـ ٢.٢١٢٥ غرام. راجع: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٥٠٦ حاشية.

([٤٦١]) T.D. Istanbul.602.p.172.

([٤٦٢]) T.D. Istanbul.393.p.102.

([٤٦٣]) هنتس، **المكاييل**، ص٩٨.

والقيراط كان يستعمل للأرض أو للبيوت أو الطواحين بغض النظر عن المساحة والقيمة، إذ كانت تقسم إلى أربعة وعشرين جزءاً متساوياً يسمى كل جزء منها قيراط وهكذا إن المالك يمكن أن يكون مالكاً وحيداً أي يملك "٢٤ قيراط من ٢٤ قيراط" أو يملك النصف ١٢ قيراط من ٢٤ قيراط وهكذا[٤٦٤].

كما استخدم الفدان وكان يستعمل للأراضي فقط، وقد كانت المناطق تقسم إلى عدد معين من الفدادين التي يفترض أن تكون متساوية فيما بينها. فمثلاً نجد منطقة السلطاني قد قسمت إلى ثلاثمائة فدان من قناة الريحانية إلى أوائل القبيبات[٤٦٥].

المهن والمستوى المعيشي:

ورد في هذه الوقفيات إشارات إلى بعض الوظائف والمهن، وهي كلها وظائف مرتبطة بالمدارس من حيث التعلم أو التعليم أو خدمة المدرسة وتوابعها (وظائف تعليمية ودينية) وهذا طبيعي لأن كل الوقفيات المتاحة هي على مدارس ولو أنا حصلنا على وقفيات لأربطة أو خوانق ممن أوقفتها نساء العصر الأيوبي لاستطعنا أن نكشف عن مهن وحرف أخرى.

وبالاستناد إلى الوقفيات المتوفرة يمكن لنا أن نفرز أصحاب الوظائف في كل وقفية على حدة وبجانب صاحب كل وظيفة مقدار ما يخصص له من راتب "دراهم" أو مواد عينية. وسنعتمد على وقفية بابه خاتون ووقفية ست الشام على المدرسة الجوانية، ووقفية زهرة خاتون.

ومن خلال هذه القائمة نستطيع أن نتعرف على الأعمال التي كانت توكل إليهم وعلى المستوى المعيشي والاجتماعي لأصحاب الوظائف.

---

(٤٦٤) الأرناؤوط، محمد، **معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر**، ط١، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٣م، ص٧٩. وسيشار له: الأرناؤوط، معطيات عن دمشق.

(٤٦٥) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٤.

ست الشام– جوانية

	شهرياً	شهرياً	شهرياً	كل ليلة
المدرس	١٣٥ درهم	غرار واحدة حنطة وشعير	٢/١ رطل صابون	١ أوقية زيت
المعيد	٤٥ درهم	٤٥ رطل خبز	٢/١ رطل صابون	٢/١ أوقية زيت
المتفقهة المبتدئين	٨ دراهم	٨ أواق خبز	٣/١ رطل صابون	٣/١ أوقية زيت
المتفقهة العلية	١٨ دراهم	٢٠ رطل خبز	٣/١ رطل صابون	٣/١ أوقية زيت
إمام شافعي	٢٥ درهم	٣٠ رطل خبز	٢/١ رطل صابون	
المؤذن	١٨ درهم	٣٠ رطل خبز	٢/١ رطل صابون	
الناظر	٢/١ المحصول ١٠			
ثمن لحم سنوياً	ثمن دهن سنوياً	مستلزمات شهر رمضان	ثمن مشمش سنوياً	ثمن بطيخ سنوياً
١٥٠ درهما الكل	الكل ١٠٠ درهم	الكل ٤٠٠ درهم الكل	الكل ٢٠٠ درهم	الكل ٢٠٠ درهم

ثمن حلاوة	ليلة نصف شعبان	ليلة ختم رمضان	في العيدين
الكل٥٠٠ درهم	٥٠ درهم	٥٠ درهم	٢٠٠ درهم

زهرا خاتون

	شهرياً	يومياً	سنوياً
الناظر	٣٠ مثقال فضة	رطل خبز يومياً	١٠/١ المتحصل من الوقف
مدرس حنفي	٣٠ مثقال فضة	رطل خبز يومياً	
إمام حنفي	٢٠ مثقال		
الخطيب	٢٠ مثقال		
مؤذن وبواب	١٠ مثقال		
مؤذن ويرقي	١٠ مثقال		
كاتب	١٠ مثقال		
جابي	١٠ مثقال		
قيم	١٠ مثقال		
قراء عدد ٦	١٠ مثقال		
رجل يكتب الناس	١٠ مثقال		
المتفقهين بالمدرسة	٥ مثقال		

بابه خاتون

	شهرياً	
مدرس شافعي	١٠٠ درهم	٨ أكيال قمح شهرياً
معيد	٤٠ درهم	٣ غرارير شهرياً
فقهاء طبقة عليا	٢٠ درهم	رطل خبز يومياً
فقهاء طبقة وسطى	١٥ درهم	ثلث رطل خبز يومياً
فقهاء مبتدئين	١٠ دراهم	ثلث رطل خبز يومياً
إمام	٢٠ درهم	رطل خبز يومياً
مؤذن	٢٠ درهم	رطل خبز يومياً
فراش	١٥ درهم	رطل خبز يومياً
بواب	١٥ درهم	رطل خبز يومياً
قراء ليلاً	١٨ درهم	
قراء نهاراً	١٢ درهم	
مؤدب الأيتام	٢٠ درهم	رطل خبز يومياً
الناظر	١٠٠ درهم	

إن الواقفات قد حددن لكل من الموظفين ما يجب أن يمارسه وطبيعة عمله ومقدار ما له من راتب أو عطاء عيني، كي لا يحصل خلاف أو إرباك.

ومن خلال القوائم السابقة نلاحظ أن هناك وظائف أساسية لا بد منها وهناك وظائف ثانوية مساعدة.

فمن الوظائف الأساسية، الناظر، وهو الجهة الإدارية العليا المسؤولة عن الشؤون الإدارية والمالية، ويرجع إليه جميع الموظفين والعاملين في المدرسة من قبل صاحبة الوقف.

ومن واجبات الناظر أن يشرف على المال الموقوف على المدرسة وتنميته والمحافظة عليه وتحصيل ريعه، حسب شروط الواقفة، وأن يقوم بالصرف من ريع هذا المال على مصالح المدرسة وموظفيها حسب شروط الواقفة، كما أعطيت الصلاحية للناظر أن يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة بقدر زيادة محصول الوقف كما في وقفية ست الشام "وللناظر أن يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة بقدر ما زاد محصول الوقف"(٤٦٦).

أو كما في وقفية عزيزة الدين "وعدة المتفقهين على ما يراه الناظر"(٤٦٧)، كما عليه أن يراعي شروط صاحبة الوقف وأن يضبط حسابات ومصروفات المدرسة وكذلك عليه أن يتفقد سير العمل بالمدرسة ومعاقبة المقصر إن لزم الأمر "وله عزل من شاء بجهة وغير جهة"(٤٦٨).

وقد كانت الواقفات يسندن النظر لأنفسهن ثم للأرشد من نسلهن "وأسندت النظر لنفسها ثم إلى الأرشد من أولاده"(٤٦٩).

كما أولت الواقفات أهمية لهذه الوظيفة إذ نجد راتب الناظر كان مجزياً في أغلب الحالات وله مثل ما للمدرس ففي وقفية زهرة خاتون حدد له ٣٠ مثقالاً من الفضة وفي وقفية بابه خاتون حدد له ٢٠٠ درهم كل شهر.

وكذلك وظيفة المدرس يقول القلقشندي: "المدرس هو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك ، وهو مأخوذ من درست الكتاب دراسة إذا كررته للحفظ"(٤٧٠).

---

(٤٦٦) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٤٦٧) T.D. Istanbul.602.p.61.

(٤٦٨) T.D. Istanbul.602.p.61.

(٤٦٩) T.D. Istanbul.393.p.172.

(٤٧٠) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٥، ص ٤٦٣.

ويبدو أن لقب المدرس شاع بعد ظهور المدارس في القرن الرابع الهجري. سعد الدين، محمد منير، **العلماء عند المسلمين**، ط١. المناهل، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٨٧. وسيشار له لاحقاً: سعد الدين، العلماء عند المسلمين.

وكذلك وظيفة المدرس وهو عماد المدرسة فلا يمكن أن نتصور مدرسة بدون مدرس وتحدد الوقفيات مذهب المدرس "وبعد ذلك يصرف لرجل حنفي مدرس"[٤٧١].

ويلاحظ أن المدرس يأتي في رأس سلم الوظائف المدرسية من حيث الراتب المخصص له ومن حيث المواد العينية المخصصة له مثل الشعير والحنطة والزيت والصابون وغيره.

وأحياناً نجد المدرس مذكور بالاسم كما في وقفية المدرسة الشامية البرانية إذ اشترطت الواقفة أن يكون المدرس بالمدرسة المذكورة هو قاضي القضاة زكي الدين أبي العباس الطاهر بن محمد بن علي القرشي وأن يخلفه في التدريس أحد من نسله المنتسبين إليه ممن يكون له أهلية التدريس، وأن يكون من أهل الخير والصلاح والعفاف وسلامة الاعتقاد[٤٧٢].

ومن الوظائف الأساسية في المدارس وظيفة "المعيد" ثاني رتبة المدرس وأصل موضوعه، فإذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليه ليفهموه ويحسنوه"[٤٧٣]، وهي تشبه إلى حد كبير وظيفة المعيد في الكليات الجامعية في العصر الحديث. وهو طالب متقدم يساعد المدرس الذي يتبعه في المذهب ومادة التخصص، وكان على المعيد أن يجلس مع الطلبة قبل الدرس أو بعده لمساعدتهم على استيعاب دروسهم"[٤٧٤].

وقد وجدت وظيفة المعيد لأن وقت المدرس لا يسمح له بإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج ذلك من الطلبة.

ومن الوظائف الأساسية كذلك وظيفة الإمام، ووظيفته كما هو معروف الإمامة في مسجد المدرسة، فقد ألحقت كل مدرسة من مدارس النساء بمسجد وسمي باسم المدرسة فقد وجد مسجد الأتابكية ومسجد المدرسة الشامية البرانية ومسجد العادلية الصغرى وجامع المارداني وغيرها.

وبالمقابل وجدت هناك وظائف ثانوية مساعدة مثل الفراش ومهمته فرش المدرسة وما يتبعها، والبواب ومهمته فتح باب المدرسة وإغلاقه في الأوقات المخصصة.

والقراء وعليهم قراءة القرآن وبعض الواقفات تجعل القراء قسمين: قسم بالليل، وآخر بالنهار، كما في وقفية باب خاتون[٤٧٥].

---

(٤٧١) T.D. Istanbul.602.p.61.

(٤٧٢) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٧.

(٤٧٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٥، ص ٤٦٤.

(٤٧٤) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٤٥.

(٤٧٥) T.D. Istanbul.602.p.172.

وبعضهن تشترط القراءة قبل الصلاة وبعدها كما عند عزيزة خاتون[٤٧٦].

ووجدت وظيفة الجابي الذي كان يقوم بجباية الأموال من مستأجري أملاك الوقف أو مستثمريه ويقوم بدفع الأموال للناظر.

ووظيفة الكاتب الذي يقوم بإعداد حسابات الوقف.

والخطيب هو من يخطب أيام الجُمع والمناسبات.

والمؤذن ومهمته أن يرفع الأذان في وقته.

ونلحظ أحياناً الازدواجية في الوظائف كما في وقفية عزيزة خاتون إذ كُلف المؤذن الأول بأن يكون بواباً والثاني أن يرقى "إثنان مؤذنان أحدهما يكون مؤذناً وبواباً والثاني مؤذن ويرقى"[٤٧٧].

ويبدو أن هذين المؤذنين يتناوبان على الأذان.

ووظيفة الترقية والمرقي هو الذي يعلن عن ظهور الخطيب من خلوة الخطابة بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[الأحزاب: ٥٦]، كما يعلن بالأذان عند صعود الخطيب المنبر، وهو الأذان الثاني، وعليه أيضاً رواية الحديث النبوي في معنى الإنصات: "إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقط لغوت"[٤٧٨].

وقد كان هناك خلاف بين المذاهب حول الترقية بالمسجد، فأبو حنيفة يذكر أن الكلام بعد خروج الإمام من خلوته إلى أن يفرغ من صلاته مكروهاً تحريماً سواء كان ذكراً أم كلاماً دنيوياً، والإمام الشافعي يرى أن الترقية بدعة حسنة لأن فيها حث على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وتحذير من الكلام أيضاً أما الحنابلة قالوا لا بأس بالكلام مطلقاً قبل الخطبتين وبعدهما، في حين رأى الإمام مالك أنها بدعة مكروهة لكنها إذا اقترنت بشروط الواقف فإنها تجوز[٤٧٩].

ونستطيع القول أنه في العصر المملوكي نضبت هذه الوظيفة بشكل أكبر وصارت الوقفيات تحدد مهامها بشكل أدق، وأن استمرار هذه الوظيفة في الوقت الحاضر يرجع أساساً إلى نظام الوقف.

---

(٤٧٦) T.D. Istanbul.602.p.61.

(٤٧٧) T.D. Istanbul.602.p.61.

(٤٧٨) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص١٨٨.

(٤٧٩) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص١٨٨-١٨٩.

الملابس:

يمكننا أن نعتبر الملابس هي مرآة للتطور الحضاري لأي عصر من العصور، إذ أنها تلقي الضوء على مستوى الحياة الاقتصادية وذلك من خلال الأقمشة المستعملة فيها، ولكن لم يرد في الوقفيات الشيء الكثير عن الملابس باستثناء وقفية بابه خاتون، التي خصصت لباساً للأيتام في فصلي الشتاء والصيف من كل سنة فقد وردت الإشارة إلى:

– **الجبة** وهي لباس خارجي من القماش الطويل، مفتوح من الأمام واسع الأكمام وتلبس فوق القميص وهي مصنوعة من القطن[٤٨٠]، ويطلق عليها أحياناً اسم "الدلف"، ويبدو أنها كانت لباساً سائداً عند الفقهاء والعلماء في العهد الأيوبي "كانوا يلبسون فوق ثيابهم دلفاً" أي جبة "متسع الأكمام طويلاً مفتوحاً من الأمام سابلاً على قدميه"[٤٨١]، ويبدو أنها كانت بألوان مختلفة فمثلاً مدرسو المدرسة المستنصرية في بغداد كانوا يلبسون جبة سوداء"[٤٨٢].

– **السروال** مشتق من الكلمة الفارسية "شلوار" أما السروال فهو ماله حجزه وساقان وتتميز في أنها تستر من الجسم أسفله وتكون مفصلة ومخيطة وهي على أنواع بحسب هيئتها منها سراويل أسماط أي غير محشوة وسراويل مخرفجة ومفرسخة وهي السراويل الواسعة[٤٨٣]، وألوانها بيضاء وصفراء[٤٨٤].

القميص: وهو يلبس فوق السروال، وكان يصنع من أقمشة رقيقة، ويبدو أن أكمامها تتميز بالاتساع إذ أنه قد ظهر في العصر المملوكي اللاحق لتلك الفترة نوع من القمصان أطلق عليه اسم "بهطلة" وكانت أكمامه متسعة جداً[٤٨٥].

([٤٨٠]) ماير، ليواري، **الملابس المملوكية**، ترجمة: صالح الشتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص٦٠ وسيشار له لاحقاً: ماير، الملابس المملوكية.

الجبة ضرب من مقطعات تلبس وجمعها جبب وجباب. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، ج٢، تصحيح: أمين محمد ومحمد الصادق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص١٦١، وسيشار له: ابن منظور، لسان العرب.

([٤٨١]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٤١.

([٤٨٢]) سعد الدين، محمد منير، **العلماء عند المسلمين**، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٩٩. وسيشار له: سعد الدين، العلماء عند المسلمين.

([٤٨٣]) العبيدي، صلاح حسين، **الملابس العربية الإسلامية**، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م، ص١٩٥–١٩٦.

([٤٨٤]) صافي، سعيد محمد، **مدينة الخليل في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٦م، ص ٦٤. وسيشار له لاحقاً: صافي، مدينة الخليل.

([٤٨٥]) ناريمان، **المرأة في مصر في العصر الفاطمي**، ص١٥٤.

الطاقيـة: وهـي نـوع مـن القلانـس التـي تغطـي الرأس، ويبدو أن تسميتها قد اكتسبتها من شكلها العام الذي يشبه الطاق[٤٨٦]، وهي تعني كلوته صغيرة تلبس تحت العمامة ولعلها من أصل فارسي، ويبدو أن استعمالها كان إلى حد ما نادراً[٤٨٧].

الدراعـة: أو المدرعـة كمـا يقـول ابـن منظـور أنهـا جبـة مشـقوقة المقـدم ولا تكـون إلا مـن الصوف[٤٨٨]. وهي مفتوحة من الجهة الأمامية أعلى القلب ومزررة بأزرار وعرى وأن الخليفة الفاطمي كان يلبس الدراعة المصنوعة من قماش أحادي اللون. مما يعني أنها كانت من جملة ملابس الخلفاء. كما كانت من بين اللباس الذي اتخذه الوزراء فهذا "حامد ابن العباس وزير المقتدر لم يفارق دراعته حتى بعد صرفه من الوزارة"[٤٨٩].

الكوفية: وهي منديل مربع يلبس فوق الرأس وله من الطول ذراع ومثله من العرض وهو من ألوان مختلفة ولونه أحمر غامق أو ضارب إلى الدكنة، أو من اللون الأخضر الزاهي، ومن الأصفر أحياناً ترقيطات واسعة، وأحياناً ضيقة، وعلى طول النهايتين المتقابلتين لها أهداب كبيرة مؤلفة من شرائط[٤٩٠]: "... وتطوى هذه الطرحة – أي الكوفية – بصورة منحرفة وتوضع على الطاقية بهيئة تتدلى منها على الظهر الزاويتان المثنيتان والزاويتان الأخريان على الجهة الأخرى، وهناك قطعة من الصوف أو عمامة تلف على العموم حول الطرحة، "العقال": وهذا الوصف مشابه جداً للكوفية المستعملة في الوقت الحاضر في الأقطار العربية"[٤٩١].

المداس[٤٩٢]: وهو ضرب من الأحذية[٤٩٣].

([٤٨٦]) العبيدي، **الملابس العربية**، ص ١٤٧-١٤٨.

([٤٨٧]) ناريمان، **المرأة في مصر في العصر الفاطمي**، ص١٥٠.

([٤٨٨]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص٣٣١.

([٤٨٩]) العبيدي، **الملابس العربية**، ص ٢٥٦.

([٤٩٠]) دوزي، رينهارت، **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة: محمد سليم النعيمي، ج٤، منشورات دار الرشيد، العراق، ١٩٨١، ص ٣٣١، حاشية. وسيشار له لاحقاً: دوزي، تكملة المعاجم.

([٤٩١]) العبيدي، **الملابس العربية**، ص١٥٣.

([٤٩٢]) وإن جاءت بعض المعلومات عن ألبسة في العصر المملوكي مثلاً فإننا نعتقد بعدم وجود فروق جوهرية في طبيعة اللباس خلال الفترات: زنكية، أيوبية، مملوكية، لأن الجوانب الحضارية في دراسة اللباس تختلف عن التقسيمات السياسية التي تحدد بتاريخ معين لقيام حكم أو زوال آخر.

([٤٩٣]) اللجمي أديب وآخرون، المحيط، معجم اللغة العربية، ط٢، م٣، دار المحيط، بيروت، ١٩٩٤م، ص١١١٨.

السلع والمنتوجات الغذائية:

لقد حفلت هذه الوقفيات بأسماء العديد من السلع والمنتجات التي اشتهرت بها بلاد الشام سواء ما كان منها سلعاً ضرورية لا بد من أن تتوفر أو سلعاً أخرى كمالية.

القمح والشعير، وهذه محاصيل شتوية تعتمد على مياه الأمطار تشتهر كل بلاد الشام بإنتاجها، ومن القمح يصنع الطحين لإنتاج الخبز، وقد كانت صناعته بواسطة المطاحن التي تديرها قوة الماء، ومن هنا نجد في بعض الوقفيات إشارة إلى الطواحين، أما الشعير فقد كان يستخدم كمادة علفية.

الزيت، ويستخرج من الزيتون، مما يدل على أن زراعة الزيتون كانت مشتهرة آنذاك في المنطقة ويستخرج بواسطة المعاصر التي تدار إما بقوة الماء أو الحيوانات إذ تذكر الوقفيات أن قرية بيت رامة، وجد فيها معصرة[٤٩٤].

ويستهلك الزيت إما كغذاء إذ كان يصرف للمدرسين والمتفقهين والإمام كما عند ست الشام نصيب محدد "ولكل واحد من الفقهاء والمتفقهة في كل ليلة ثلث وقية زيت"[٤٩٥].

أو كزيت للقناديل إذ تسرج به البيوت والمدارس والمساجد ليلاً "وفي كل شهر خمسة أرطال زيت يسرج للقاعة الحرمية"[٤٩٦]. كما أنه يدخل في صناعة الصابون.

الصابون: وكان يصنع في القرى التي تكثر فيها أشجار الزيتون، وذلك للاستهلاك المحلي، وكانت صناعة الصابون تتم عن طريق مزج زيت الزيتون النقي والجيد الطيب المحكم المطبوخ بالصودا القلوية المستخرجة من شجر الدار دار، يطبخ المزيج على النار، وعندما يصبح لزجاً يتم سكبه في أوانٍ كبيرة ثم يقطع ثم يسوق بالمدن، كذلك فقد انتشرت المصابن (أماكن صناعة الصابون) في معظم القرى الشامية، حتى ذكر أنه في قرية مرتين وحدها ستة عشر مصبنة[٤٩٧].

---

(٤٩٤) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٤٩٥) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٤٩٦) T.D. Istanbul.393.p.136.

(٤٩٧) مقابلة، إيمان أحمد، **القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٦م، ص١٤٤. وسيشار له لاحقاً: مقابلة، القرية في بلاد الشام.

كما وردت الإشارة في الوقفيات إلى الحصر وهي أيضاً من الصناعات التقليدية التي اشتهرت في بلاد الشام في ذلك العصر، ومن النباتات التي استخدمت في هذه الصناعة نبات السامان والحصر المصنوعة منه تسمى الحصر السامانية، ومن نبات الأسل ونبات الحلفاء وهو نبات يتجاوز ارتفاعه الذراع، وكانت تصبغ بالألوان المختلفة، وقد عرف بجودته حتى أنه كان يحمل للبلاد البعيدة[٤٩٨].

وكذلك البسط اشتهرت بها بلاد الشام، ولقد ذُكِرَ أن العصر الفاطمي كان يضم بسطاً من صناعة القلمون "محافظة دمشق"[٤٩٩].

أما المشمش فهو مما اشتهرت به بلاد الشام بأكملها ومدينة دمشق بالتحديد، فهذا أبو شامة يورد أشعاراً كثيرة في وصف المشمش الدمشقي، بعد أن يذكر أن موسمه هو موسم دمشق المشهود.

فقد ذكر من الشعر قول أحدهم:

هلموا نسابق نحو مشمش جلق — وثم كما نهوي على الأكل نلتقي
تصفر شوقاً لانتظار قدومنا — ومن يتعشق ذا الفضائل يشتق
إذا حضرت أطباقه غاب رشدنا — لما يتلاقى من مشوقٍ وشيّق[٥٠٠]

ولكثرته كان يصنع منه الطعام المعروف "المشمشية" في قرى الغوطة والمرج وفي القرى التي تزرع شجر المشمش[٥٠١].

ونجد في هذه الوقفيات ذكراً للسكر، فقد عرف الفلاحون في بلاد الشام زراعة القصب. وبالإضافة لاستخدامه في الطعام استخدموه في صناعة العقاقير الطبية[٥٠٢]، ومن المعروف أن الصليبيون حين سيطروا على هذه المنطقة وجهوا عنايتهم لهذه الصناعة التي حملوها معهم إلى أوروبا كما أنهم حملوا معهم صناعاً من الشام وأنزلوهم في جزيرة صقلية"[٥٠٣].

([٤٩٨]) مقابلة، **القرية في بلاد الشام**، ص١٤٧.

([٤٩٩]) بهنسي، عفيف، **الشام لمحات آثارية وفنية**، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠م، ص٢٢٧. وسيشار له لاحقاً: بهنسي، الشام لمحات آثارية.

([٥٠٠]) أبو شامة، **الروضتين**، ص٢٠٥-٢٠٦.

([٥٠١]) مقابلة، **القرية في بلاد الشام**، ص١٤٨.

([٥٠٢]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٩٠.

([٥٠٣]) مقابلة، **القرية في بلاد الشام**، ص١٤٥.

كما أننا نجد ذكراً للحلاوة واللوز، وأيضاً القطايف وهي نوع من الحلويات التي تشتهر بها بلاد الشام في شهر رمضان تحديداً.

وذكر أيضاً الطشت وهو الوعاء الذي تغسل فيه الأيدي ويغسل فيه القماش أيضاً[٥٠٤].

([٥٠٤]) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٩-١٠.

معطيات طوبوغرافية:

تعتبر الوقفيات مصدراً مهماً للمعطيات الطوبوغرافية التي تتعلق بقرية أو مدينة أو حتى منطقة بكاملها، ومن ناحية أخرى نجد أن الوقفيات تحفل بأسماء المحلات في المدن وتحدد موقع المنشآت المختلفة "قرى، مزارع، طواحين، أسواق" وتعطي تفاصيلاً عمرانية مما يساعدنا على إعادة تصور الوضع الطوبوغرافي للمدن في ذلك الوقت بعد أن تغيرت معالمها كثيراً خلال القرون السابقة[٥٠٥]، إلا أن الوقفيات المتاحة لدينا هي من النوع الصغير، مما يعطينا إشارات صغيرة فكلما زاد حجم الوقفية كثرت المعطيات عن المدن والقرى.

وهذه الوقفيات تعطي معلومات واسعة عن الأراضي في حين أن المصادر تجملها دون تمييزها. فمثلاً فيما يتعلق بأوقاف المدرسة الشامية الجوانية يذكر بدران أن ما أوقف على المدرسة حكر متعددة".[٥٠٦] بينما تفصلها الوقفية كالتالي:

"أحكار أراضي في محلة عاتكة".

"أراضي سلطاني تابع بلد .. وأراضي قطايع تابع ....".

"أراضي بستان الدورة مع الغراس القديم".

"أرض ... شاغور".

"حكر أرض يعرف بكرم خياط"[٥٠٧].

وبالإضافة إلى ذلك تعطي الوقفيات حدود الأراضي والمزارع وتبين مقدار الحصص كما يظهر ذلك في وقفية المدرسة المرشدية.

"حصة من بستان الكليب خمسة أسهم وثلثي سهم، وخمس سهم وسبع سهم". ومن طاحون الطرب الخمس.

ودار بجبل الصالحية، وحصة بقرية تقي الدين، سبعة أسهم ونصف سهم وربع سهم وثلث عشر سهم.

وحصة بقرية الطرة ثلثا سهم وثلث سبع سهم.

وحصة بخان عاتكة ثمان أسهم ونصف.

وحصة بجبة عسال من قصر معلولا ثلث أسهم وفي الجبة سهم ونصف.

---

(٥٠٥) الأرناؤوط، **معطيات عن دمشق**، ص٣٥.

(٥٠٦) بدران، **منادمة الأطلال**، ص١٠٤.

(٥٠٧) T.D. Istanbul.393.p.102.

ومن القربانية سبع أسهم، وبستان الماردانية بكماله"[٥٠٨].

ومن خلال الوقفيات نعرف ما الذي درس وما الذي بقي، فمثلاً الجبة والتي تدخل فيما أوقف على المدرسة وهي موضع أو محله سكنية في حي الصالحية وذكر ابن كنان الصالحي أنها كانت قبل ذلك تسمى بستان ست الشام"[٥٠٩]. أما خان عاتكة فقد درس تماماً[٥١٠].

ومن الجدير بالذكر أن بعض المحلات المذكورة في الوقفيات لا نجد لها ذكراً في "معجم دمشق التاريخي". مما يعني أنها درست أو تغيرت مسمياتها.

كما تمدنا الوقفيات بأسماء المزارع والبساتين مثل "المزرعة الدماغية" بقصر اللباد و"مزرعة شرخوب" شرقي قرية عراد الموقوفتان على المدرسة الدماغية[٥١١].

و"مزرعة ست الشام" التابعة للوادي التحتاني[٥١٢].

و"مزرعة حلبة المرج"[٥١٣].

و"بستان بجسر البطة والغيضة الثانية"[٥١٤]، وهذان البستانان موقوفان على المدرسة العالمة.

كما تمدنا الوقفيات بمسميات القرى التي دخلت ضمن الوقف والتي كان بعضها بعيداً عن دمشق مثل قرية بيت رامه التابعة لغور عجلون، وقرية كامد شوف البياض[٥١٥]. وهي من القرى اللبنانية كما يذكر شميساني في كتابه "مدارس دمشق في العصر الأيوبي".

وفي بعض الأحيان نجد في الوقفيات معطيات تتعلق ببعض القرى سواء بالنسبة لأراضيها أو تبعية بعض الأراضي لها أو لوجود معصرة زيتون فيها. فقرية بيت رامة كانت تابعة لغور عجلون تذكر الوقفية أن فيها معصرة زيتون[٥١٦].

---

(٥٠٨) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٧٦.

(٥٠٩) الشهابي، **معجم دمشق**، ج١، ص ١٣٩.

(٥١٠) الشهابي، **معجم دمشق**، ج١، ص ٢٣٩.

(٥١١) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٢٣٦.

(٥١٢) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٥١٣) T.D. Istanbul.393.p.136.

(٥١٤) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١١٣.

(٥١٥) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٥١٦) T.D. Istanbul.602.p.172.

المناسبات الدينية:

ومن الأشياء التي بدت في الوقفيات بشكل ملحوظ التوسعة على أرباب الوظائف وطلبة العلم والأيتام والفقراء في المناسبات الدينية المختلفة مثل شهر رمضان وصلاة التراويح والليالي العشر الأخيرة منه، وليلة النصف من شعبان، وعيد الفطر وعيد الأضحى.

فشهر رمضان هو فرصة مناسبة لزيادة الصدقات والإكثار من أعمال البر والإحسان إلى الفقراء والتوسعة على الناس وخاصة في العشر الأواخر منه وفي ليلة ختم القرآن في آخر ليلة، ومعروف أنه في شهر رمضان تتضاعف كمية الاستهلاك من جميع الحوائج.

فقد حددت ست الشام في المدرسة الشامية الجوانية أربعمائة درهم ثمن لحم وحوائج وأجرة الطباخ في الزبادي وأجرة قدور الطبخ، ومئتا درهم ثمن مشمش ومئتا درهم ثمن بطيخ. وفي ليلة النصف من شعبان خمسين درهم ثمن حلاوة أما في ليلة ختم القرآن في آخر ليلة منه فقد حددت خمسين درهماً ثمن قطايف وسكر ولوز، وفي العيد مئتا درهم لنفس الغرض[٥١٧].

أما في المدرسة الشامية البرانية فنجد ٨٠٠ فضة ناصرية في كل سنة في ليلة نصف شعبان ثمن مشمش وبطيخ وحلوى[٥١٨].

أما بابه خاتون فقد حرصت على أن تجزل العطاء للأيتام في هذا الشهر الذين بلغ عددهم عشرون يتيماً فقد حددت لكل يتيم أوقيتين لحم أو ما يعادلهما.

كما أنها زادت كمية الزيت المخصص للمدرسة بمقدار خمسة أرطال ليصل إلى عشرين رطلاً. وفي صلاة التراويح تخصص أربعة أرطال شمع لتوقد أثناء أداء الصلاة، كما حددت عشرة رؤوس أغنام، خمسة لعيد الفطر وخمسة لعيد الأضحى[٥١٩].

أما زهرة خاتون فقد اختارت ليلة النصف من شعبان لتصرف فيه عشرة أرطال زيت يسرج بالمدرسة وتوابعها، كما أنها تحدد مائة درهم ثمن حلوى وشمع وبخور للقراء.

وفي العشر الأواخر من رمضان جعلت لكل ليلة خمسين درهماً ثمن خبز يفرق على الفقراء والمساكين، بمعنى أنها خصصت لهذه الليالي خمسمائة درهم من الوقف[٥٢٠].

---

(٥١٧) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٥١٨) بدران، منادمة الأطلال، ص١٠٧.

(٥١٩) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٥٢٠) T.D. Istanbul.393.p.136.

ومن الأشياء الملفتة للنظر في وقفية ست الشام على المدرسة الشامية الجوانية أن من كسر طبقاً أو قنديلاً أو طشتاً أو من الأشياء المعرضة للكسر لا يتم تغريمه بدفع ثمن ما كسر ولكن يستجد عوضه من الوقف "ومن كسر شيء من هذه الآلات أو عدم استجد عوضه"[٥٢١].

وهذا ما يدفعنا إلى ابن بطوطة ورحلته إلى دمشق، وذكره لحكاية المملوك الصغير والصحفة، إذ أنه مر ببعض أزقة دمشق فرأى مملوكاً صغيراً وبيده صحفة من الفخار الصيني "الصحن" فسقطت وتكسرت. فاجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب وقف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن[٥٢٢].

وقصة ابن بطوطة هذه رواها لما زار دمشق أثناء العصر المملوكي، بينما وقفية ست الشام مؤرخة في سنة ستمائة وعشرة ٦١٠هـ/١٢١٣م أي في العصر الأيوبي، وهذا ما يجعلنا نفترض أن وقف الأواني بدأ بشكله البسيط في العصر الأيوبي إذ كانت المنفعة محصورة على المستفيدين من الوقف فيما يتعلق بالأواني، ثم إنها لاحقاً تطورت لتتعدى إلى كل أفراد المجتمع.

---

(٥٢١) T.D. Istanbul.393.p.102.

(٥٢٢) ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تقديم: عبد الهادي التازي، م١، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، ١٩٩٧م، ص٣٣١. وسيشار له لاحقاً: رحلة ابن بطوطة.

الفئات المستفيدة من الوقف:

أ- الأيتام.

نلاحظ اهتماماً لدى بعض الواقفات بالأيتام طلباً للمثوبة والأجر ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم، ففي الحديث: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما"(٥٢٣).

ففي وقفية بابا خاتون نجدها تحدد عشرين يتيماً للإنفاق عليهم وتجري لهم الجراية الكافية من مأكل وكسوة بالإضافة إلى تدريسهم، فقد جعلت لكل يتيم يومياً نصف رطل خبز، وفي كل يوم من شهر رمضان أوقيتين لحم أو قيمتهما، وفي كل فصل شتاء وصيف كسوة كاملة تتكون من الطاقية والجبة، وثلاثة قمصان، وكوفيتين، وسروال، ومداسين، ودراعة.

كما بلغ من حرصها على العناية بالأيتام، أن خصصت لهم مؤدباً(٥٢٤)، يتولى تعليمهم وتربيتهم، وقد حددت له في كل شهر عشرين درهماً ورطل خبز(٥٢٥). وهذا يعطينا إشارة واضحة إلى أن هذه المدرسة "العادلية الصغرى" كان يتبع لها مكتباً للأيتام أو أن قسماً منها خصص للأيتام، وهذا ما أشار إليه ابن جبير عندما زار المشرق الإسلامي وعدها من المفاخر التي تحسب لهذه المنطقة(٥٢٦). وظهر هذا الأمر بشكل واضح في العصر المملوكي إذ أنه قلما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص ريع لتعليم عدد من الأطفال الأيتام"(٥٢٧).

---

(٥٢٣) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/ ٨٥٨م)، صحيح البخاري، تحقيق: جواد عفانة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ٢٠٠٣م، ج١، ص ٤٨٤. وسيشار له لاحقاً: البخاري، صحيح البخاري.

(٥٢٤) يجب أن ننبه هنا إلى عدم الخلط بين مؤدب الأيتام وبين المؤدب الذي هو في الغالب المعلم الخصوصي لأبناء الخاصة وينتدب لهذه المهمة انتداباً، فالجاحظ عندما يورد أمثلة عن معلمي أولاد الملوك يسميهم مؤدبين. سعد الدين، **العلماء عند المسلمين**، ص١٩٥-١٩٦.

(٥٢٥) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٥٢٦) **رحلة ابن جبير**، ص٢٤٥.

(٥٢٧) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص٢٦٢.

ب- الفقراء والمساكين:

إن الأوقاف في الأصل هي صدقة لمساعدة الفقير والمحتاج، وهذه الفئة حظيت برعاية ودعم الواقفات، سواء بما قدمن من مساعدات خارج نطاق الوقف، أو بما أجرين على الفقراء في المدارس من ضمن الوقفيات.

فقد وصفت خاتون بنت معين الدين أنر واقفة المدرسة الخاتونية الجوانية بأن لها معروف وصدقات ورواتب للفقراء وإدرارات[٥٢٨]. كما وصفت ست الشام بأنها أكثر النساء صدقة وإحساناً إلى الفقراء والمحاويج[٥٢٩].

أما زهرة خاتون فقد حددت خمسين درهماً ثمن خبز يفرق على الفقراء والمساكين بباب المدرسة، وذلك في ليالي العشر الأخير من رمضان. وهي مدركة لجزيل ثواب هذه الليالي وما فضل بعد ذلك كان وقفاً لجهة البر والصدقة[٥٣٠].

ومن الواقفات من تعدت ذلك وأوقفت على غسيل ثياب الفقراء، فست الشام أوقفت طبق نحاس وسطلين نحاس وطشت نحاس لغسل ثياب الفقراء[٥٣١].

وفي حالة حصول طارئ وعدم التمكن من الصرف على الجهات المذكورة في وقفيتي زهرة خاتون وبابه خاتون فإن الوقف كله يؤول على الفقراء والمساكين[٥٣٢].

وهذه أصبحت قاعدة عامة وركناً أساسياً من أركان الوقف لاحقاً – حتى ولو كان وقفاً أهلياً فلا بد أن يؤول في النهاية إلى جهة بر لا تنقطع[٥٣٣].

([٥٢٨]) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص١٥٧.

([٥٢٩]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٨٥.

([٥٣٠]) T.D. Istanbul.393.p.136.

([٥٣١]) T.D. Istanbul.393.p.102.

([٥٣٢]) T.D. Istanbul.393.p.136.

([٥٣٣]) محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية**، ص١٣٤.

ج- الفقهاء والمتفقهة:

ويقصد بهم طلاب العلم في المدارس المذكورة التي أقامتها الواقفات. وهؤلاء جزء من المجتمع الإسلامي، إذ وفرت لهم هذه المدارس كل ما يحتاجون إليه من مأكل ومسكن وجراية شهرية وأرزاق عينية، بالإضافة إلى تعليمهم.

فالتعليم كان مفتوح الباب أمام جميع أبناء المجتمع على اختلاف فئاتهم لا تمييز بين الغني والفقير، وطلاب العلم كانت أعدادهم تزداد وتنقص بما يتناسب مع حجم الوقف.

ومما يشار إليه أن هذه الفئة "طلاب العلم" هي أكثر الفئات استفادة من وقف المرأة لأن أغلب ما أوقف هي المدارس[٥٣٤].

د- العتقاء:

والعتيق هو العبد الذي أعتقه سيده وأطلق حريته، وهناك ارتباط عميق بين العتيق وسيده الذي يعرف بعد الإعتاق بالمعتق، وقد تمتع العتقاء بمركز مرموق في أوقاف النساء في هذا العصر، حيث نصت بعض الوقفيات على استحقاق العتقاء من الوقف.

فقد جعلت بابه خاتون وقفها على أولادها ثم على عتقائها[٥٣٥]. كما أوقفت زهرة خاتون على النسوة المعتقات الساكنات بالقاعة الحرمية – مما يعطينا إشارة إلى توفير مسكن لائق لسكنى المعتقات– وقفاً عينياً إذ خصصت لهن في كل يوم نصف رطل خبز وفي كل شهر خمسة أرطال زيت تسرج به القاعة الحرمية وتوابعها[٥٣٦].

كما تذكر المصادر أن خاتون بنت معين الدين أنر أوقفت على معتقيها لكن لم يصلنا من أوقافها سوى مدرستها[٥٣٧].

وهناك من الواقفات من أوقفت على خدامها مثل الخاتون أرغوان الحافظية التي أوقفت دارها التي تعرف بدار الإبراهيمي على خدامها[٥٣٨].

([٥٣٤]) عتقاء بابه خاتون هم عنبر، وكافور، وبدر، يذكرهم السبكي في فتاويه عند إجابته عن سؤال عن وقف العادلية الصغرى. السبكي، **فتاوى**، ج٢، ص٣٦.

([٥٣٥]) T.D. Istanbul.602.p.172.

([٥٣٦]) T.D. Istanbul.393.p.136.

([٥٣٧]) الذهبي، **تاريخ الإسلام حوادث ٥٨١-٥٩٠**، ص ٧.

([٥٣٨]) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠.

هـ- ذرية الواقفات.

وهؤلاء أيضاً كان لهم نصيب من وقف المرأة في هذه الفترة سواء من خصصت لهم وقفاً كاملاً باعتبار أنه وقف ذري، أو من خصصت لذريتها نصيباً من وقفيات المدارس.

ففاطمة بنت خولان بن عشائر الصحراوي أوقفت حصتين إحداهما نصف بستان حراجي يعرف ببني الملاج وحصة أخرى ثمن بستان يعرف بدف المعصرة على ولدها عبد الخالق بن علي ثم على نسله من الأولاد(٥٣٩).

أما بابه خاتون فقد ذهب جزء من وقفها لبنت عمها زهرة خاتون(٥٤٠)، وإن توفيت زهرة خاتون فإن نصيبها من الوقف يعود على أخوتها الستة وأولادهم(٥٤١).

ومن الأشياء التي تعطي صورة للتكافل بين من أدرجوا تحت مظلة وقف المرأة أن النقص إن حصل في محصول الوقف فإنه يوزع على جميع الأطراف المستفيدة بمقدار معين، مما يضمن استمرارية أداء المؤسسة لرسالتها، وهذا ما نجده في وقفية ست الشام "وللناظر أن يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة بقدر ما زاد محصول الوقف، ومتى عجز كان النقص داخلاً على الجميع. وتتعدى الوقفية أبعد من ذلك ففي حال وفاة أحد من المستحقين فإنها خصصت عشرة دراهم للقيام بتكفينه وتجهيزه.." (٥٤٢).

---

(٥٣٩) السبكي، **فتاوى**، ج١، ص٥٠١.

(٥٤٠) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٥٤١) T.D. Istanbul.602.p.172.

(٥٤٢) T.D. Istanbul.393.p.102.

الخاتمة:

جاءت هذه الدراسة محاولة علمية لبيان ما أوقفته المرأة في دمشق في العصر الأيوبي – مع الإشارة إلى قلة الدراسات العلمية التي توثق وقف المرأة– من مدارس وخوانق ومساجد، وهو العصر الذي تميز بخصوصيته عن غيره من العصور في مجال الأوقاف وكثرتها، كما أنها محاولة لبيان أثر هذه الأوقاف على المجتمع الدمشقي.

وقد تبين أن الإسلام أعطى المرأة حرية في تصرفاتها، وبالتالي كان لها الحق في التصرف فيما تملك فكان لها أن توقف ما تشاء، فأدركت المرأة ذلك وكانت إيجابية في مجال الوقف. وتبينت هذه الإيجابية من خلال التتبع لمساهمة المرأة خلال القرون الخمس الأولى للهجرة في مختلف مناطق العالم الإسلامي إذ تنوعت إسهاماتها لتشمل الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية، كما تنوعت فئات النساء ومراتبهن الاجتماعية.

وفي العصر الأيوبي كشفنا عن عدد من الواقفات أغلبهن ممن ينتمين للطبقة الحاكمة أوقفن بشكل المدارس والخوانق والمساجد، والقلة الباقية من الطبقة العلماء والعامة. وعلى الرغم من قلة المعلومات عن بعض منهن إلا أننا استطعنا إعطاء صورة واضحة عن كل واحدة مع بيان وقفها. وخاصة بواسطة بعض الوقفيات التي عثرنا عليها والتي تطرح هنا لأول مرة. وكانت دوافع المرأة للوقف هو تأثرها بالعصر الذي تميز بكثرة الوقف كما مرّ سابقاً، ولأن نساء الطبقة الحاكمة هن كرديات الأصل سعين للتودد للعامة وكسبها إلى جانبها، وأحياناً الخوف من المصادرات.

وقد أسهمت أوقاف النساء في توفير مراكز علمية نشطة، ساعدت على تخريج عدد من العلماء ساهموا بإحياء الحركة الثقافية بدروسهم ومؤلفاتهم، كما استقطبت علماء من دمشق وغيرها.

وأضافت الوقفيات التي حصلنا عليها وهي وقفيات لنساء من ذلك العصر معطيات جديدة عن جوانب حضارية لا نجدها في بقية المصادر، مثل المكاييل والموازين والمستوى المعيشي للطلاب والعلماء وكذلك الألبسة، والمعلومات الطبوغرافية، ولو كانت الوقفيات أكثر من ذلك لأضفنا تفاصيل أخرى جديدة.

الملحق رقم (١)
(وقفيات غير منشورة)

زهرا خاتون

وقف زهرا خاتون بنت سلطان سيف الدين أبي بكر على أن يبدأ الناظر بعمارته وإصلاحه، ثم على عتقاء الواقفة وعتقاء أختها ومن بعدهم على مصالح المدرسة المعروفة بالواقفة وعلى المدرس بها والفقهاء والمتفقهة الشافعية ولإمام ومؤذن وساير الجماعة المرتبين بها ويصرف من محصول الوقف في كل سنة ثلثماية درهم على البر والصدقة حال حيوتها "حياتها" فإذا توفيت صرف منها ماية درهم لثمن الفاكهة وماية درهم لطبخ أرز أصفر وماية درهم ثمن مشمش متصدق على الجماعة المترتبين والسكان بالدار الحرمية التي بها ويصرف إلى كل واحدة من النسوة المعتقات الساكنات بالقاعة الحرمية وغيرهن من النسوة المعتقات الساكنات بقاعة الحرمية في كل يوم نصف رطل خبز وفي كل شهر خمسة أرطال زيت يسرج للقاعة الحرمية وتوابعها وفي ليلة النصف من الشعبان عشرة أرطال زيت يسرج بالمدرسة وتوابعها وماية درهم لثمن حلوا بفرق رسمهم وماية درهم ثمن حلوا وشمع وبخور للقراء على تربتها وغيرهم.

ويصرف من محصول الوقف في ليالي العشر الأخير من رمضان في كل ليلة خمسون درهماً ثمن خبز يفرق على الفقراء والمساكين بباب المدرسة وما فضل كان وقفاً لجهة البر والصدقة ثم من بعد وفاتها على مصالح المدرسة ومستحقيها، فإن تعذر ذلك كان وقفاً على الفقراء والمساكين وأسندت النظر لنفسها ثم إلى الأرشد من أولاده ثم إلى المدرس بالمدرسة، ومن سمي حقه في كتاب الوقف إلى حاكم المسلمين بدمشق تاريخ الوقفية في سنة ست وخمسين وستمائة.

(٢) بابه خاتون

وقف بابه خاتون بنت سلطان أسد الدين شيركوه على زهرا خاتون ثم على أولادها ثم عتقائها فإذا انقرضوا كان وقفاً خمسة أسهم من قرية رامه ومزارعها ومعصرتها على مصالح المدرسة وعلى قراءة القرآن وعلى المدرس الشافعي وعلى الفقهاء والمتفقهه الشافعية وعلى الإمام والمؤذن والقيم والفراش والبواب وعلى عشرين يتيماً وثمن حصر وزيت ومصابيح وشمع للمدرس في كل شهر مائة درهم ومن القمح ثمانية أكيال وللمعيد في كل شهر أربعين درهماً ومن القمح ثلث غرايز ولعشرين فقيهاً ومتفقهه ثلث طبقات للطبقة العليا في كل شهر لكل نفر عشرون درهماً وفي كل يوم رطل خبز ولواحد من الطبقة الوسطى في كل شهر خمسة عشر درهماً وفي كل يوم ثلثا رطل خبز ولكل واحد من المبتدئين في كل شهر عشرة دراهم وفي كل يوم ثلثا رطل خبز وللإمام الشافعي في كل شهر عشرون درهماً وفي كل يوم رطل خبز وللمؤذن في كل شهر عشرون درهماً وفي كل يوم رطل واحد خبز وللفراش خمسة عشر درهماً وفي كل يوم رطل خبز وللبواب في كل شهر خمسة عشر درهماً وفي كل يوم رطل خبز ولكل واحد من ثمانية قراء يقرؤون القرآن عند ضريح الواقفة في كل شهر اثني عشر درهماً في النهار ولكل واحد من الثمانية القراء يقرؤون بالليل في كل شهر ثمانية عشر درهماً ولمؤدب الأيتام في كل شهر عشرون درهماً ورطل خبز وللأيتام العشرين لكل واحد نصف رطل خبز وفي كل سنة لكل يتيم في فصل الشتاء والصيف طاقية وجبة وثلاثة قمصان وكوفيتين وسروال ومداسين ودراعة وفي كل يوم من شهر رمضان أوقيتين لحماً أو قيمتهما ويشتري خمسة عشر رطلاً زيتاً بدسم المدرسة ويزاد شهر رمضان خمسة أرطال وفي كل شهر رمضان أربعة أرطال شمع يوقد في صلوة "صلاة" التراويح وفي كل سنة ثمن عشر رؤوس أغنام خمسة تذبح لعيد الفطر وخمسة في عيد الأضحى يفرق على أرباب الوظائف وعلى من يحضر وقت التفرقة ولعامل الوقف أجرة مثله وللناظر في كل شهر مائة درهم فإن تعذر الصرف في هذه الجهات كلها ولم يمكن صرفه لشيء منها كان هذا الوقف جميعه جارياً على الفقراء والمساكين وبقية الحصة من بيت رامة ومزارعها وآلات معصرتها بعد وفاة الخاتون زهراً وهي عشرة قراريط وقفاً على إخوتها الستة وأولادهم ثم من بعدهم على المدرسة المذكورة وبقية الوقف على عتقائها وأولادهم ومن بعدهم على المدرسة المذكورة وشرط النظر إلى زهرا خاتون ومن بعدها إلى المدرس ثم إلى حاكم المسلمين بدمشق تاريخ الوقفية في سنة خمس وخمسين وستمائة. مسطور في السجل.

١٢٧ ح

يسرج للساعة الحومية وتوابعها وفي ليلة النصف من الشعبان عشرة ارطال زيت يسرج بالمدرسة وتوابعها وماية درهم لتفرق على الفقراء بيوتهم وماية درهم تنفق على الخدام وشمع وحصر للقراء على ترتيبها وعينهم ويصرف من محصول الوقف في ليالي شهر الاخير من رمضان في كل ليلة خمسون درهما ثم خبز تفرق على الفقراء والمساكين الحاضرين وما فضل كان وقفا لجهة البر والصدقة ثم من بعد وفاتها على مصالح المدرسة ومستحقيها فان تعذر ذلك كان وقفا على الفقراء والمساكين واستمرت الغلة فيها ثم الى الاولاد ثم اولادهم ثم الى المدرسين بالمدرسة ومن بعدهم وشرط في كتاب الوقف ان يحكم المسلمين بدمشق تاريخ الوقفية في سنة ست وخمسين وستماية مسطور في المجلد

وقفت ست عشرة ضيعة مرجورة

ط

ومنها وقفت والدة بنت السلطان الملك العادل سيف الدين شركس على ذهر الخاتون ثم على اولادها ثم عتقائها فاذا انقرضوا كان وقفا خمسة اسهم من قرية راعه ومزارعها وقفا خمسة اسهم على مصالح المدرسة وعلى قراءة القرآن وعلى المدرس الشافعي وعلى الفقهاء والمتفقهة الشافعية وعلى الامام والمؤذن والقيم والفراش والبواب وعلى عشرين يتيما وعشرين وذيب ومصابيح وشمع للمدرس في كل شهر ماية درهم ومن القمح ماية اكيال والقمح كل شهر اربعين درهما ومن القمح ثلث قراريط وعشرين قفيزا ومتفقهة ثلث طبقات الطبقة العليا في كل شهر لكل نفر عشرون درهما وفي كل يوم رطل خبز ولواحد من الطبقة الوسطى في كل شهر خمسة عشر درهما وفي كل يوم ثلثا رطل خبز ولكل واحد من المبتدئين في كل شهر عشرة دراهم وفي كل يوم ثلثا رطل خبز وللامام الشافعي في كل شهر عشرون درهما وفي كل يوم رطل خبز وللمؤذن في كل شهر عشرون درهما وفي كل يوم رطل واحد خبز وللفراش خمسة عشر درهما وفي كل يوم رطل خبز وللبواب في كل شهر خمسة عشر درهما وفي كل يوم رطل خبز ولكل واحد من القراء القراءة عند ضريح الواقف في كل اثني عشر درهما في النهار ولكل واحد من القراءة القراءة يقرؤن بالليل في كل شهر ثمانية عشر درهما وللمؤذن في الايام في كل شهر عشرون درهما ورطل خبز وللايام العشر لكل واحد نصف رطل خبز وفي كل سنة لكل قيم في فصل الشتا والصيف طاقية وجبة وثلاثة قصاع وكوفية وسروال ومداسين وذراعه وفي كل يوم من شهر رمضان اوقية من لحم اوقيمتها ويشترى خمسة عشر رطلا من لحم برسم المدرسة ويزاد شهر رمضان خمسة ارطال وفي شهر رمضان اربعة ارطال شمع يوقد في صلوة التراويح وفي كل سنة ثمن عشرة اردب وعن اغنام خمسة تذبح لعيد الفطر وخمسة في عيد الاضحى يفرق على ارباب الوقف وعلى من يحضر وقت التفرقة ولعامل الوقف اجرة مثله وللناظر في كل شهر ماية درهم فان تعذر الصرف في هذه الجهات كلها ولم يمكن صرف شيء منها كان هذا الوقف جميعه ريعا على الفقراء والمساكين وبقية الحصة من ريع دارهم ومزارعها والات معصرتها وقفت لخاتون ذهر اوصى عشرة قراريط وقفا على اخوتها الستة واولادهم ثم من بعدهم على المدرسة المذكورة وبقية الوقف على عتقائها واولادهم ومن بعدهم على المدرسة المذكورة وشرط النظر لذهر خاتون ومن بعدها الى المدرس ثم الى حاكم المسلمين تاريخ الوقفية في سنة ثمان وخمسين وستماية مسطور في المجلد

ط

(٣) أقجة خاتون

وقف عزيزة الدين أقجه ديره خاتون ابنة الأمير قطب الدين الغازي ابن ارتوق الماردانية على أن يبدأ من إليه النظر بعمارة الجامع وتوابعه وبسطه بالحصر والبسط ويصرف الناظر في كل سنة برسم الوقيد بالجامع وبابين وكان التدريس وغيره ست وسبعين رطل وفي كل سنة أربعة أرطال شمع لشهر رمضان وغيره وللناظر في كل يوم رطل خبز وفي كل شهر من الفضة ثلاثين مثقالاً وفي كل سنة عشر المتحصل وما فضل بعد ذلك يصرف لرجل حنفي مدرس في كل يوم من الخبز رطل وفي الشهر من الفضة ثلاثين مثقالاً ولإمام حنفي المذهب من الفضة في كل شهر عشرين مثقالاً وللخطيب من الفضة عشرين مثقالاً ولخمسة أنفار اثنان مؤذنان أحدهما يكون مؤذناً وبواباً والثاني مؤذن ويرقى والثالث كاتب والرابع جابي والخامس قيم لكل واحد منهم في كل شهر من الفضة عشر مثاقيل ولستة أنفار حفاظ لكتاب الله تعالى يجتمعون نهار كل جمعة بالجامع المذكور ويقرؤون جزءاً قبل الصلوة "الصلاة" وبعدها من الفضة في كل شهر لكل نفر عشرة مثاقيل ولرجل يكتب الناس في كل شهر من الفضة عشرة مثاقيل وللمتفقهين بالمدرسة لكل نفر خمسة مثاقيل وعدة المتفقهين على ما يراه الناظر كثرة وقلة وإن فضل شيء من متحصل الوقف بعد صرف ما عليه صرف يصرف لذريتها وجعلت النظر والولاية في وقتها لنفسها ثم من بعدها لذريتها وجعلت له نصب المدرس والإمام وكل من أرباب الوظايف وتقريرهم وله عزل من شاء منهم بحجة وبغير حجة تاريخ كتاب سجل الوقفية في سنة خمس وثلاثين وتسعماية تاريخ الوقفية مسطور في السجل المذكور في سنة سبع وعشرين وستماية .

وقف هذه الدار الخ وهي خاتون زينب الامير قطب الدين الغازي بن ارتق في ثاني
على ان يسكنها من يراه الناظر لعمارة الجامع ونوابه ويبسطه بالحصر والبسط ويضيء
الناظر في كل سنة برسم الوقيد بالجامع وبابيه وكان الدرسي وغيره ست
وسبعين رطل وفي كل سنة اربعة ارطال شمع لشهر رمضان وغيره وللباطري
رطل خبز وفي كل شهر من الفضة ثلاثين مثقالا وفي كل سنة عشر المتحصل وفضل ما
بعد ذلك يصرف لرجل حسن الدرس في كل يوم من الخبز رطل وفي الشهر من الفضة
ثلاثين مثقالا ولامام حنفي المذهب من الفضة في كل شهر عشرين مثقالا وللخطيب من الفضة
عشرين مثقالا ولخمسة انفار انسان موذنان احدهما يكون موذنا ونوابا والثاني مؤذن
ومرقي والثالث كاتب والرابع جابي والخامس قيم لكل واحد منهم في كل شهر من الفضة
عشرة مثاقيل ولستة انفار وحفاظ لكتاب الله تعالى يجتمعون منهم في كل جمعة بالجامع
ويقرؤن جزء قبل الصلوة وبعدها من الفضة في كل شهر لكل نفر عشرة مثاقيل ولرجل
مكتب الناس في كل شهر من الفضة عشرة مثاقيل وللمتفقهين بالمدرسة لكل نفر خمسة
مثاقيل وعن المتفقهين على ما يراه الناظر من كثرة وقلة وان فضل شيء من متحصل الوقف
بعد صرف ما عليه صرف فيما يصرف لذريتها وجعلت النظر والولاية في وقفها لنفسها ثم من
بعدها لذريتها وجعلت له نصب المدرس والامام وكل من له باب الوظايف وتقريرهم
وله عزل من شاء منهم بجهة وبغير جهة تاريخ كتاب سجل الوقفية في سنة ثمان وثلاثين وستمائة
تاريخ الوقفية مسطور في السجل المذكور في سنة سبع وعشرين وستمائة

(٣) وقف ست الشام ـ برانيه

الطواشي شبل الدولة كافور الخاتوني على الخاتون ست الشام بنت حسام الدين أبي سعد أيوب ابن شادي فإذا توفيت عاد وقفاً على مصالح المسجد والمدرسة والتربة والسقاية في محلة سوق صاروجه وثمن حصر وبسط وشمع وعمارة ما يحتاج إليه وبخور وما ورد وزيت في كل سنة ستين رطل وفي رمضان في كل ليلة رطل وكذلك في ليلة صلوة الرغايب ونصف شعبان وفي التربة نصف أوقية الزيت وفي السقاية كذلك وثمن طبق نحاس وسطلين نحاس برسم استعمال غسيل ثياب الفقراء وطشت نحاس وكل من كسر شيء من هذه الآلات أو عدم استجد عوضه وللمدرس الشافعي في كل شهر مائة وخمسة وثلثون درهماً وعن الحنطة والشعير غرارة واحدة وثمانية أكيال وللمعيد الشافعية خمسة وأربعون درهماً ومن الخبز خمسة وأربعون رطلاً ولكل واحد من المتفقهة المبتدئين في كل شهر ثمانية دراهم وفي كل يوم ثمانية أواق من الخبز ولكل واحد من الفقهاء العلية في كل شهر ثمانية عشر درهماً وعشرون رطل خبز وللإمام الشافعي في كل شهر خمسة وعشرون درهماً ومن الخبز ثلاثون رطلاً وللمؤذن في كل شهر ثمانية عشر درهماً ومن الخبز ثلاثون رطلاً وللمقيمين الموسومين بخدمة التربة والمدرسة والمسجد والمأذن والسقاية وخدمة الفقهاء والمتفقهة في كل شهر أربع وعشرون درهماً ومن الخبز ستون رطلاً ولكل واحد من الفقهاء والمتفقهة في كل شهر أربع وعشرون درهماً ومن الخبز ستون رطلاًَ ولكل واحد من الفقهاء والمتفقهة في كل شهر ثلث رطل صابون وللمعيد نصف رطل صابون ولكل واحد من الإمام والمؤذن والقيم في كل شهر نصف رطل صابون وللمدرس في كل شهر نصف رطل صابون ما دام ساكناً في المدرسة ولكل واحد من الفقهاء والمتفقهة في كل ليلة ثلث وقية زيت وللمعيد نصف وقية وللمدرس أوقية ما دام ساكناً بها ولثمن فحم للفقهاء المتفقهة والإمام وبقية المستحقين في كل سنة ماية وخمسون درهماً وثمن دهن برسم حوزة الدرس في مدة الشتاء مائة درهم وثمن لحم وحوايج وأجرة الطباخ في الزبادي وأجرة قدور الطبخ في شهر رمضان أربع ماية درهم يفرق على المقيمين وثمن مشمش برسمهم مائتا درهم وثمن بطيخ مائتا درهم وفي الرغايب خمسون درهم رسم الحلاوا وليلة نصف شعبان خمسون درهماً وليلة ختم رمضان خمسون درهماً ثمن قطايف وسكراً ولوزاً وسرجاً وفي العيدين مائتا درهم. ونصف العشر للناظر بعد المشترط للعمارة وما فضل بعد هذا من محصول الوقف يشترى به ملكاً ويوقفه وللناظر أن يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة بقدر ما زاد محصول الوقف ومتى عجز كان النقص داخلاً على الجميع وإذا مات أحد من المستحقين يكفن ويجهز بعشرة دراهم والنظر للواقف ومن بعده للموقوف

عليها ومن بعدها للأرشد من نسل الخاتون، ثم إلى حاكم المسلمين بدمشق تاريخ الوقفية سنة عشرة وستمائة بموجب دفتر أوقاف المكتوب بها.

المصادر والمراجع

الكتب الوقفية:

1- T.D. Istanbul. 393. p.102.

2- T.D. Istanbul. 393. p.136.

3- T.D. Istanbul. 602. p.172.

4- T.D. Istanbul. 602. p.61.

المصادر:

١. ابن العديم الحلبي الحنفي، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ط٢، ج٢، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٩٧م، ص٦٣٢-٦٣٤.

٣. ابن الأثير، عز الدين بن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ/ ١١٦٠م)، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٦م.

٤. ابن الطوير، المرتضى عبد السلام بن القيسلاني (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م)، **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

٥. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي أحمد (ت ١٠٨٩هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٦. ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي يوسف بن أبي عبد الله الحسن بن شهاب بن عبد الهادي (ت٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، تحقيق: محمد أسعد طلس، بيروت، ١٩٤٣م.

٧. ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تقديم: عبد الهادي التازي، م١، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، ١٩٩٧م.

٨. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨١٣هـ/١٤١٠م)، **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

٩. ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، **رحلة ابن جبير**، دار الينابيع، عمان، ١٩٩١م.

١٠. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **كتاب العبر**، ط٥، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.

١١. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت٦٨١هـ/ ١٤٧٦م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

١٢. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق: يحيى زكريا عبارة، ج٢، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٢م.

١٣. ابن طولون، محمد بن طولون الصالحي، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، مكتبة الدراسات الإسلامية، دمشق، ١٩٤٩م.

١٤. ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، **الكواكب الدرية في السيرة النورية**، ج١، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٨٧١م.

١٥. ابن كثير، الإمام أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

١٦. ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، **المروج السندسية الفسيحة في تلخيص تاريخ الصالحية**، تحقيق: محمد دهمان، مديرية الآثار القديمة، دمشق، ١٩٤٧م.

١٧. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، ج٢، تصحيح: أمين محمد ومحمد الصادق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

١٨. أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٩. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، **صحيح البخاري**، ط١، ج١، تحقيق: جواد عفانه، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ٢٠٠٣م.

٢٠. البهوتي، منصور بن يونس، **الروض المربع شرح زاد المستنقع**، ج٢، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٧٠م

٢١. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م)، **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٢. الحنبلي، مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج١، دار المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.

٢٣. الخصاف، أبو بكر الشيباني (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، **أحكام الأوقاف**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٤. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الدمشقي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م، حوادث ٥٤١-٥٥٠هـ.

٢٥. ---------، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: محمد السعيد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

٢٦. السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) **فتاوى السبكي**، تحقيق: حسام الدين القدسي، م١، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٠.

٢٧. السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**، ج٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م.

٢٨. الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٢٩. الصفدي، ابن أيبك، **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، قسم ٢، حققه: إحسان بن سعيد خلوصي وزهير الصمصام، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٢م.

٣٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، ج٨، تحقيق: محمد بن محمد، فرانز شتانير بفيسبادن، ١٩٦٢م.

٣١. العسقلاني، الإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ) **إنباء الغمر بأبناء العمر**، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

٣٢. الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)، **لطف السمر وقطف الثمر**، ج١، تحقيق: محمود الشيخ، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٨١م.

٣٣. القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ج١٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧.

٣٤. الملطي، عبد الباسط خليل بن شاهين، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م.

٣٥. الموصلي، ياسين الخطيب العمري بن خير الله (ت ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م)، **الروضة الفيحاء في تواريخ النساء**، الدار العالمية للطباعة والنشر، (د.م)، ١٩٨٧م.

٣٦. النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق: جعفر الحسني، ج١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م.
٣٧. النووي، الإمام أبو زكريا محي الدين النووي الدمشقي (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م)، **روضة الطالبين**، تحقيق: عادل أحمد وعلي محمد، ج٤، طبعة خاصة، دار عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٣٨. ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، ٥ج، دار الفكر، بيروت، د.ت.

المراجع:

٣٩. أحمد، ناريمان عبد الكريم، **المرأة في العصر الفاطمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
٤٠. الأرناؤوط، محمد، **معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر**، ط١، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٣م.
٤١. أقطاش، نجاتي، **الأرشيف العثماني**، ترجمة: صالح سعداوي صالح، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون بإسطنبول ومركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٦م.
٤٢. أمين، محمد محمد، **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ)**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.
٤٣. الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.
٤٤. بدران، عبد القادر (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، ط٢، المجمع العربي للتأليف والدراسات والترجمة، بيروت، ١٩٨٦م.
٤٥. بدوي، عبد المجيد، **التاريخ السياسي للمذهب السني**، ط٢، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٨م.
٤٦. البرهاوي، رعد محمود أحمد، **خدمات الوقف الإسلامي وآثاره في مناحي الحياة**، دار الكتاب الثقافي، إربد، ٢٠٠٦م.
٤٧. بهنسي، عفيف، **الشام لمحات آثارية وفنية**، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠م.
٤٨. بيطار، أمينة، **تاريخ العصر الأيوبي**، دار الطباعة الحديثة، دمشق، ١٩٨١م.
٤٩. التازي، عبد الهادي، **المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي**، الناشر "الفنك"، الدار البيضاء، ١٩٩٢م.

٥٠. الحجي، حياة ناصر، **السلطان محمد قلاوون ونظام الوقف في عهده**، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٣م.

٥١. الحداد، محمد يحيى، **تاريخ اليمن السياسي (٢)، من عصر الإمام الهادي إلى سقوط دولة الإمامة**، ط٤، دار التنوير للطباعة، بيروت، ١٩٨٦م.

٥٢. حسن، حسن إبراهيم، **الدولة الفاطمية**، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م

٥٣. الحصين، أحمد بن عبد العزيز، **المرأة المسلمة أمام التحديات**، ط١، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ١٩٩٨م.

٥٤. الحميدان، إيمان محمد، **المرأة والوقف**، ط١، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، ٢٠٠٦م.

٥٥. خريسات، محمد عبد القادر، **المرأة والمشاركة السياسية في ظل الدولة الإسلامية**، ط١، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م.

٥٦. خيرت، أحمد، **مركز المرأة في الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

٥٧. دوزي، رينهارت، **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة: محمد سليم النعيمي، منشورات دار الرشيد، العراق، ١٩٨١.

٥٨. رؤوف، عماد عبد السلام، **إسهامات نسائية في حركة إنشاء المدارس في العراق خلال العهود الإسلامية**، مركز إحياء التراث العلمي، بغداد، مطبعة التعليم العالي، الموصل، ١٩٨٩م.

٥٩. الزرقا، مصطفى، **أحكام الأوقاف**، ط٢، دار عمار، عمان، ١٩٨٨م.

٦٠. ساعاتي، يحيى محمود، **الوقف وبنية المكتبة العربية**، استبطان للموروث الثقافي، ط١، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٩٨م.

٦١. السباعي، مصطفى، **من روائع حضارتنا**، المركز العالمي للكتاب الإسلامي، الكويت.

٦٢. السرحان، عبد الله بن ناصر بن عبد الله، **الآثار الاجتماعية للأوقاف**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٣. سعد الدين، محمد منير، **العلماء عند المسلمين**، ط١. المناهل، بيروت، ١٩٩٢م.

٦٤. السيد، أيمن فؤاد، **الدولة الفاطمية، تفسير جديد**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م.

٦٥. شلبي، أحمد، **تاريخ التربية الإسلامية**، دار الكشاف، القاهرة، ١٩٥٤م.

٦٦. شلبي، محمد مصطفى، **أحكام الوصايا والأوقاف**، الدار الجامعية للطباعة، بيروت، ١٩٨٢م.

٦٧. شميساني، حسن، **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦م.

٦٨. الشهابي، قتيبة، **مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية**، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٥م.

٦٩. الشهابي، قتيبة، **معجم دمشق التاريخي**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٩م.

٧٠. طقوش، محمد سهيل، **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة**، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م.

٧١. طلس، محمد أسعد، **التربية والتعليم في الإسلام**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٢م.

٧٢. العبيدي، صلاح حسين، **الملابس العربية الإسلامية**، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م.

٧٣. عثمان، محمد عبد الستار، **المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة**، الكويت، ١٩٨٨م.

٧٤. العلبي، **خطط دمشق**، دار الطباع، دمشق، ١٩٨٩م.

٧٥. عيسى، أحمد، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

٧٦. فالتي هنتس، **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م.

٧٧. فياض، عبد الله، **تاريخ التربية عند الإمامية**، بغداد، ١٩٧٢م.

٧٨. قاشا، سهيل، **المرأة في شريعة حمورابي**، جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٥م.

٧٩. اللجمي أديب وآخرون، **المحيط، معجم اللغة العربية**، ط٢، دار المحيط، بيروت، ١٩٩٤م.

٨٠. ماير، ليواري، **الملابس المملوكية**، ترجمة: صالح الشتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢.

٨١. المطوي، محمد العروسي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

٨٢. الناصر، محمد حامد، **عهد نور الدين وصلاح الدين**، مكتبة الكوثر، الرياض، ١٩٩٨م.

٨٣. النجار، إبراهيم عبد الهادي، **حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية**، دار الثقافة، عمان، ١٩٩٥م.

٨٤. كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣م.

الدوريات:

٨٥. الأرناؤوط، محمد، **إعادة الاعتبار إلى وقف المرأة في التراث**، جريدة الحياة، بيروت، ١٦ شباط ٢٠٠٨م.

٨٦. بنبلغيث، الشيباني، المرأة في تونس من خلال الأحباس خلال العصر الحديث، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، عدد ٣٣، تونس، ٢٠٠٦م.

٨٧. جحا، فريد، **المدارس الأثرية في مدينة حلب**، أوراق عدد ٥-٦، المعهد الإسباني للثقافة، مدريد، ١٩٩٠م.

٨٨. حسين، حسين عبد الوهاب، **الوقف ودوره في فداء الأسرى في بلاد الشام ومصر في عصر الحروب الصليبية**، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، ٢٠٠١م.

٨٩. خربوطلي، شكران، **أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية في العصر الأيوبي**، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م، ص٨.

٩٠. عاشور، سعيد عبد الفتاح، **المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ط١، الجامعة الأردنية، ١٩٧٤م.

٩١. عبد الرحمن، أحمد عوف، **أوقاف الرعاية الصحية في المجتمع الإسلامي**، سلسلة "الأمة"، ع١١٩، قطر ١٤٢٨هـ.

٩٢. غانم، عماد الدين، المدرسة الطبية الدمشقية، **مجلة البحوث التاريخية الليبية**، ع١، ١٩٨٥م.

٩٣. مفيد، خديجة، المرأة والوقف- التجربة المغربية، **مجلة أوقاف الكويت**، س٦، ع١٠، ٢٠٠٦م.

الرسائل الجامعية:

٩٤. فليفل، محمد الحاج محمود، م**دينة دمشق في العصر الأيوبي ٥٧٠-٦٥٦هـ/ ١١٧٢-١٢٥٨م**، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م.

٩٥. صافي، سعيد محمد، **مدينة الخليل في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٦م.

٩٦. المصري، جهاد سليمان، **التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، المفرق، ١٩٩٩م.

٩٧. مقابلة، إيمان أحمد، **القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٦م.

Abstract

Endowment (Waqf) is considered as a system that participated efficiently and effectively in the development and the progress of the Islamic society. It paved the way for holistic establishments in all the active sectors of the society such as, the educational , the social and the healthy sectors.

Jurists permitted Al-Waqf, and they founded the consolation that lead to its success. It has been considered as a representive of the Islamic civilization for its concern with science knowledge and architecture.

In this thesis, the researcher has shown what women had endowed in Ayyubid period such as schools , mosques and Credenza.

This period is distinguished from other periods with the spread of endowments. This study might be considered as a try to show the effect of Waqf on Damascus Society.

It became clear the Islam has given the women much more freedom in her behaviors, in the sense that she had the right to endow whatever she wants. She had become clear through the positive contribution of the women in the different regions of the Islamic world through the previous five centuries. That was clear through here participations in the educational, healthy and theological services to the extent that women were varied in the social rules.

The woman's motives for Waqf were her being influenced by the age as a whole that way distinguished with the spread of what is called Al- Waqf.

Additionally, the women of the ruling class were from a Kurdish women, they have sleeked to flatter and win the member of the society.

Women's Waqfs have participated in building active scientific centers that helped much in the gradation of many scientists who participated in flourishing the cultural movement with their lectures and publishments.

Women Waqfs have added new gains about cultural scopes such as; scales and measures standards of living levels for students and scientists, classes and many others.

If Waqfs were more than that, we want to add more new information.